

خَيَالٌ فِي النّافِذَةَ

جورج سيمْنون

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرواية هديّة مجّانية من الناشر

دار النجمة للنشر والتوزيع

للاطلاع على رواياتنا المنشورة نرجو التكرم بزيارة
موقعنا على الرابط التالي:

https://www.starbooks.shop

خَيَالٌ في النّافِذَة

www.starbooks.shop

جورج سيمْنون

خَيَالٌ فِي النّافِذَة

دار النجمة للنشر والتوزيع

www.starbooks.shop

العنوان الأصلي لهذه الرواية
L'Ombre Chinoise
(The Shadow in the Courtyard)
صدرت طبعتها الأولى سنة ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
دار النّجمة للنشر والتوزيع
يُمنَع نسخ أو تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

الطبعة الأولى
٢٠٢١

العنوان الإلكتروني للناشر
info@star-agatha.com
صفحتنا في فيسبوك
www.facebook.com/star.agatha.christie
موقعنا على الإنترنت
www.starbooks.shop

www.starbooks.shop

الفصل الأول

-١-

كانت الساعة العاشرة مساء، وكان ميدان ألفاجْ خالياً من المارة ومن السيارات، وتحت أعمدة النور التي تشكل إطاراً عجيباً حول الميدان قدر ضئيل من الضوء وبضعة متاجر.

وقف المفتش ميجريه أمام متجر من تلك المتاجر تكدست فيه أكاليل الموتى المرصعة باللؤلؤ، وكان يحاول قراءة أرقام الأبنية المنقوشة فوق الأبواب، وما كاد يتجاوز متجر الأكاليل حتى خرجت عليه من وسط الظلمة امرأة ضئيلة وقالت: أنا التي اتصلت بك هاتفياً قبل قليل.

لا بدّ أنها وقفت تترقب وصوله لفترة طويلة، وعلى الرغم من برد تشرين الثاني (نوفمبر) فقد لاحظ أنها لا ترتدي معطفاً فوق ثوبها. كان أنفها أحمر وعيناها قلقتين، وعلى بعد لا يبلغ مئة متر عند منعطف الشارع وقف أحد رجال الشرطة في زيه الرسمي.

سألها ميجريه: ألم تبلّغيه؟

www.starbooks.shop

فقالت: لم أفعل، بسبب السيدة سان مارك التي توشك على الوضع. انظر! ها هي ذي سيارة الطبيب الذي استُدعي على عجل.

وقفت بجانب الرصيف ثلاث سيارات مصابيحها الأمامية مضاءة، وكذلك نورها الخلفي الأحمر، أما السماء التي تدافعت فيها الغيوم وشعّ من خلال فرجاتها نور القمر فقد كان يلوح عليها شحوب غامض، فكان الناظر يظن أن الثلوج توشك أن تتساقط.

كانت المرأة واقفة في فناء العمارة الذي يضيئه مصباح باهت ازداد لونه شحوباً من أثر التراب. قالت: سأشرح لك. على المرء أن يجتاز هذا الفناء ليصل لأي شقة في العمارة، وهذه غرفتي إلى اليسار. لا تُلقِ بالاً، لم يكن عندي وقت لأضع الأولاد في السرير.

كانا طفلين، صبياً وبنتاً، داخل مطبخ غير منظم. لكن حارسة العمارة لم تدخل إلى غرفتها، وقالت وهي تشير إلى العمارة الكبيرة في آخر الفناء الرحيب: هناك، ستفهم حالاً.

كان ميجريه يتأمل بفضول تلك المرأة الضئيلة الغريبة التي كانت يداها المضطربتان تكشفان عن آثار الحمى. "مطلوب مفتش مباحث في الهاتف"، هكذا أخبروه قبل فترة وجيزة. ثم سمع صوتاً خافتاً، فكرر ثلاث مرات أو أربع مرات قائلاً: ارفعي صوتك، أنا لا أسمعك.

- لا أستطيع، أنا أتحدث من كشك السجائر.

كانت رسالة متقطعة، وكل ما استطاع فهمه هو هذا: يجب

www.starbooks.shop

الحضور فوراً إلى المبنى رقم ٦١ في ميدان ألفاج. أجل، أعتقد أنها جريمة!

أشارت حارسة العمارة إلى نوافذ الطابق الأول الكبيرة، وخلف الستائر بدت أشباح تروح وتغدو. قالت: هناك.

- الجريمة؟

- لا، السيدة سان مارك التي تلد أول ولادة لها. إنها ليست قوية بما فيه الكفاية، هل تفهم؟

كان الفناء أشد ظلاماً من ميدان ألفاج، وكان يضيئه مصباح واحد مثبت في السور، ويتكهن المرء بوجود درج خلف باب زجاجي، ثم نوافذ مضيئة هنا وهناك.

- ولكن ماذا عن الجريمة؟

- إليك الآتي: في الساعة السادسة انصرف العمال من عند كوشيه.

- لحظة، ماذا تقصدين بقولك "من عند كوشيه"؟

- من المكاتب الموجودة في العمارة، معمل لتحضير الأمصال. لا بد أنك تعرف أمصال الطبيب ريفيير؟

- تلك النافذة المضيئة؟

- انتظر. نحن في الثلاثين من الشهر، وقد كان من عادة السيد كوشيه أن يبقى في هذا اليوم بمفرده بعد إغلاق المكاتب. لقد رأيت خياله وراء الزجاج المظلل جالساً في مقعده. انظر!

www.starbooks.shop

من خلال نافذة من الزجاج المعتم بدا شبح غريب كأنه لإنسان منكفئ فوق مكتبه.

سألها: أهذا هو؟

- نعم. ألقيت نظرة في نحو الثامنة عندما أفرغت وعاء القمامة فوجدته يكتب. إننا نرى بوضوح اليد التي تمسك ريشة أو قلماً.

- وفي أية ساعة كانت الجريمة؟

- لحظة. بعد ذلك ذهبت لأستفسر عن وضع السيدة سان مارك، وعندما رجعت نظرت ثانية فكان كما هو الآن، حتى إنني اعتقدت بأنه قد نام.

بدا الاهتمام في وجه ميجريه، فقالت الحارسة: وبعد ذلك بربع ساعة...

فقاطعها قائلاً: أعرف، كان ما يزال في الوضع نفسه. انتقلي إلى المهم.

- هذا كل ما في الأمر، أردت أن أتأكد فطرقت باب المكتب، ولمّا لم يُجِب أحدٌ دخلت، فوجدته ميتاً، وكان الدم يغطي سطح المكتب.

- لماذا لم تخبري قسم الشرطة؟ إنه على بعد خطوتين في شارع بنار.

- ليحضر الجميع في الزي الرسمي ويقلبوا البيت؟! لقد

www.starbooks.shop

أخبرتك أن السيدة سان مارك...

كان ميجريه يضع يديه في جيبيه وغليونه بين أسنانه، وراح ينظر إلى نوافذ الطابق الأول وقد انتابه شعور بأن اللحظة تقترب، فقد زاد الاضطراب وسمع صوت باب يُفتَح وخطوات أقدام على الدرج، ثم ظهر في الفناء خيال جانبي طويل وعريض، فراحت الحارسة تتمتم قائلة وهي تضع يدها على ذراع مفتش المباحث: هذا السيد سان مارك، إنه سفير سابق.

أما الرجل الذي لم تتضح معالم وجهه فقد توقف، ثم عاد إلى المسير، ثم توقف ثانية وهو لا يكفّ عن مراقبة نوافذ شقته.

مضت قائلة: لا بد أنهم أرسلوه إلى الخارج. حسناً، ها هو صوت المذياع مرة أخرى!

فوق شقة عائلة سان مارك بالضبط كانت في الطابق الثاني نافذة صغيرة ضعيفة الإضاءة، وكانت مغلقة، وثمة موسيقى عالية تصدر من المذياع.

أما حارسة العمارة، وكانت متأثرة محمَرّة العينين مضطربة اليدين، فقد سارت متجهة إلى أقصى الفناء، وكانت تشير إلى درَج صغير وباب مفتوح، وقالت: ستراه إلى اليسار، أما أنا فأفضّل أن لا أدخل.

كان مكتباً عادياً من خشب فاتح اللون، وخلفه رجل في الأربعين من عمره جالس في مقعد ذي مسندين وقد سقط رأسه فوق الأوراق المتناثرة أمامه، وكان قد تلقى طلقة في صدره.

www.starbooks.shop

أرهف ميجريه السمع. كانت حارسة العمارة ما تزال بانتظاره في الخارج والسيد سان مارك لا يكفّ عن ذَرْع الفناء، ومن آن إلى آخر تمرّ في الميدان سيارة تزيد ضوضاؤها من عمق الصمت الذي كان يتبع ابتعادها.

لم يلمس مفتش المباحث شيئاً. لقد تأكد فقط أن السلاح غير موجود في المكتب، وأمضى بضع دقائق ينظر حوله وهو يسحب أنفاساً خفيفة من غليونه، ثم خرج وفي وجهه تصميم وإصرار.

عندما عاد إلى الأسفل كانت الحارسة ما تزال هناك، وسألته بصوت خفيض: ماذا؟

فقال لها: لقد مات.

- منذ برهة نادوا السيد سان مارك وطلبوا ذهابه إلى شقته في الأعلى.

صدرت من الشقة أصوات صاخبة، أبواب تصطك وشخص ما يجري، فتمتم ميجريه وهو يحك ذقنه قائلاً: يبدو أن السيدة في حالة سيئة، ولكن عملنا ليس هناك. حسناً، هل لديك فكرة عن الشخص الذي يمكن أن يكون قد دخل المكتب؟

- أنا؟ كيف؟

- أعني من غرفتك، لا بدّ أنك تشاهدين السكان وهم يدخلون إلى العمارة.

- ربما كان بوسعي أن أصنع ذلك لو أن مالك العمارة

www.starbooks.shop

أسكنني في شقة جيدة واهتم بإضاءة العمارة، أما في الوضع الحالي فبالكاد أسمع بعض الخطوات وألمح بعض الأشباح في المساء... وإن كنت أستطيع تمييز بعض السكان من أصوات خطواتهم.

- هل لاحظت أي شيء غير عادي منذ الساعة السادسة؟

- لا، لم ألاحظ شيئاً. لقد جاء جميع المستأجرين تقريباً وأفرغوا أوعية قمامتهم هنا، إلى يمين بابي. هل ترى صناديق القمامة الثلاثة؟ ليس من حقهم أن يأتوا لإفراغها قبل الساعة السابعة مساء.

- ولم يدخل أحد من جهة دهليز العمارة الذي يفتح على الشارع الخلفي؟

- كيف تريدني أن أعرف؟ أنت لا تعرف العمارة. إن فيها ثمانية وعشرين شقة، بالإضافة إلى مكاتب شركة كوشيه، لذلك فإن حركة الدخول والخروج كثيفة طول الوقت.

سمع وقع أقدام في الدهليز، ثم خرج إلى الفناء رجل يغطي رأسه بقبعة فانعطف إلى اليسار واقترب من أوعية القمامة، وهناك حمل وعاء فارغاً. وعلى الرغم من الظلام فلا بدّ أنه لمح ميجريه والحارسة لأنه مكث ثابتاً لحظة، وأخيراً نطق قائلاً: لا شيء لي؟

- لا شيء يا سيد مارتان.

سألها ميجريه: مَن يكون؟

- السيد مارتان، موظف في مكتب التسجيل، وهو يسكن

www.starbooks.shop

مع زوجته في الطابق الثاني.

- وأي مصادفة جعلت صندوق قمامته هنا؟

- كلهم تقريباً يصنعون ذلك عندما يريدون الخروج، يُنزلون وعاء القمامة عند انصرافهم ثم يستعيدونه عند رجوعهم... هل سمعت؟

- ماذا؟

- يُخيل إليّ أنني سمعت شيئاً كصرخة مولود جديد. فقط لو أنهما في الطابق الثاني يوقفون هذا المذياع الملعون! لاحظ أنهم يعلمون تمام العلم أن السيدة سان مارك تضع مولودها في هذه اللحظات، ومع ذلك...

ثم هرولت ناحية الدرج الذي كان ينزله شخص ما وسألته قائلة: ماذا يا دكتور؟ صبي؟

- بل بنت.

ومضى الطبيب، وسُمع صوت محرك سيارته وهو يدور استعداداً للانطلاق. وعاد المكان لمواصلة حياته اليومية: الفناء المظلم، والدهليز ومصباحه الكئيب، والنوافذ المضيئة، وموسيقى المذياع الغامضة.

كان الميت ما يزال في مكتبه وحيداً ورأسه فوق بعض الرسائل المتناثرة، وفجأة دَوَّت صرخة في الطابق الثاني، صرخة حادة كأنها نداء يائس، لكن حارسة العمارة لم تفزع ولم تتأثر،

www.starbooks.shop

بل تنهدت فقط وهي تدفع باب غرفتها قائلة: حسناً، المجنونة مرة أخرى!

ثم صاحت هي أيضاً لأن أحد ولدَيها هشّم طبقاً، ثم سألته: متى ستبدأ بالإجراءات؟

-٢-

في مواجهة العمارة كان كشك السجائر ما يزال مفتوحاً، وبعد دقائق كان ميجريه قد دخله للاتصال بالهاتف كما صنعت حارسة العمارة من قبل، وبصوت خافت مثلها راح يصدر بعض التعليمات: نعم، البناية ٦١ عند منعطف شارع تورين. أجل، سأبقى في مكان الحادثة.

ثم خطا بضع خطوات على الرصيف وعاد إلى الفناء عابسَ الوجه مضموم الكتفين من أثر البرد. وفي النوافذ بدأت الأنوار تخبو، وكأن الميت لا يفتأ يرسم قطعاً من خيال الظل فوق الزجاج المعتم.

ثم توقفت سيارة أجرة خرجت منها امرأة شابة واجتازت الفناء بخطى حثيثة تاركة وراءها أثراً معطراً، ثم دفعت باب المكتب.

* * *

www.starbooks.shop

www.starbooks.shop

الفصل الثاني

-١-

تسببت سلسلة كاملة من الأحداث العفوية في موقف مضحك، فما إن اكتشفت المرأة الجثة حتى التفتت وهمَّت بالاندفاع خارج المكتب، ثم لمحت شبح ميجريه الضخم واقفاً بالباب فتكونت الصور في خيالها تلقائياً: القتيل من ورائها والقاتل من الأمام!

سقطت منها حقيبة يدها وجحظت عيناها وبدأ جسمها ينتفض من الرعب، ثم فتحت فمها لتستغيث. ولم يكن لدى ميجريه وقت للجدال، فجذبها من ذراعها وأطبق بيده على فمها قائلاً: صه، أنا من الشرطة.

خلال اللحظات التي كانت تحاول فيها استيعاب تلك الكلمات راحت تجتهد لتخليص نفسها، فقد كانت امرأة عصبية. حاولت أن تعضّه وسمع ضربات بكعب حذائها، فكرر ميجريه قائلاً: لا أريد صوتاً. أنا من الشرطة، لا أريد إثارة سكان العمارة.

كل ما يميز تلك الجريمة هو ذلك الصمت الغريب في

www.starbooks.shop

مثل هذه الحال، ذلك الهدوء، وأولئك المستأجرون الثمانية والعشرون الذين كانوا يواصلون حياتهم العادية دون إدراك لوجود الجثة في عمارتهم.

هدأت المرأة فسألها قائلاً: هل أنت صديقة له؟

رمقت ميجريه بنظرة حزن، فسألها: هل كان بينك وبينه موعد هذا المساء؟

- نعم، في الثامنة، في مطعم سيليكيت. كان المفروض أن نتناول العشاء معاً ثم نذهب إلى المسرح.

- ولمّا لم يأتِ في الثامنة ألم تتصلي به هاتفياً؟

- حاولت، فأخبرتني موظفة السنترال أن الجهاز مفصول أو أن السماعة مرفوعة.

نظر كلاهما إلى الهاتف فوق المكتب في نفس الوقت؛ لا بدّ أن الرجل قلَبه عندما سقط إلى الأمام.

ثم وصل إلى سمعهما وقع أقدام في الفناء، ففي ذلك المساء كانت أضعف الأصوات تتضخّم وتبدو وكأنها تخرج من تحت ناقوس. ونادته الحارسة وهي واقفة على عتبة الباب حتى لا ترى الجثة: سيدي مفتش المباحث، إنهم رجال القسم.

وصلوا، أربعة أو خمسة، وكان أحدهم ينتهي للتوّ من سرد قصة مسلية، وسأل آخر عندما بلغ المكتب قائلاً: أين الجثة؟

ولما كان رئيس القسم غائباً فقد ناب عنه مساعده، فزاد

www.starbooks.shop

هذا من حرية ميجريه في مواصلة إدارة العمليات. قال: اترك رجالك في الخارج. أنا بانتظار النيابة، ومن الأفضل أن لا يرتاب المستأجرون بشيء.

وبينما كان المساعد يتجول في المكتب عاد والتفت إلى المرأة من جديد وسألها قائلاً: ما اسمك؟

- نين، نين مونار، ولكنهم يدعونني دائماً نين.

- هل تعرفين كوشيه منذ فترة طويلة؟

- منذ ستة شهور تقريباً.

لم يجد ضرورة لتوجيه أسئلة كثيرة إليها، بل اكتفى بتأملها فقط. كانت فتاة على قدر غير قليل من الجمال، لا تزال في مطلع حياتها، إلا أن طريقتها في التزين وحمل الحقيبة والقفاز والنظر إلى الناس بروح الشك كانت تكشف كلها عن كواليس أحد الملاهي.

سألها قائلاً: أين تعملين؟

- كنت أعمل بالاستعراضات الموسيقية في مسرح الطاحونة الزرقاء.

- والآن؟

- طلب مني أن أترك العمل.

لم تتَح لها فرصة البكاء. لقد مضى كل شيء بسرعة خارقة ولم تتكون لديها بعدُ فكرة واضحة عن الحقيقة.

www.starbooks.shop

- هل كان يعيش معك؟

- لا، فقد كان متزوجاً. كانت بيننا علاقة صداقة بريئة فحسب.

- ما هو عنوانك؟

- فندق بيغال، في شارع بيغال.

ولاحظ المساعد قائلاً: عموماً لا يبدو أن المكان تعرض للسرقة.

- لماذا؟

- انظر. إن الخزنة وراءه، وهي ليست مقفلة بالمفتاح ولكن ظهر القتيل يحول دون فتح بابها.

أما نين التي أخرجت من حقيبتها منديلاً صغيراً فقد راحت تنشق. وفي اللحظة التالية تغير الجو، سُمعت أصوات سيارات في الطريق ووقع أقدام وأصوات في الفناء، ثم أسئلة ومحاورات صاخبة. كانت النيابة قد وصلت.

بدأ الطبيب الشرعي بفحص الجثة وشرع المصورون بإعداد أجهزتهم، أما ميجريه فقد كانت تلك لحظة بغيضة عليه قضاؤها، فبعد تبادل العبارات القليلة اللازمة خرج إلى الفناء ويداه في جيبيه، ثم أشعل غليونه.

ولم يلبث ميجريه أن اصطدم في الظلام بشخص ما. لقد كانت الحارسة التي لم تستطع أن تسمح بترك أناس مجهولين

www.starbooks.shop

يجولون في البيت دون أن تشغل بالها بأعمالهم وحركاتهم، فسألها ميجريه متطفلاً: ما اسمك؟

- السيدة بورسييه. هل سيبقى هؤلاء السادة طويلاً؟ انظر، لقد اختفى الضوء في حجرة السيدة سان مارك، لا بدّ أن المسكينة نامت الآن.

ثم لمح ميجريه وهو يفحص النوافذ نوراً آخر، ستارة بلون الحليب ومن ورائها امرأة ضئيلة نحيلة يشبه قوامها قوام الحارسة. ولم يكن صوتها مسموعاً، غير أنه لم يكن من الصعب التخمين بأنها كانت في حالة غضب شديد. كانت تارة تبقى ثابتة بصرامة تحدق النظر في شخص أمامها لا يظهر للعيان، وفجأة كانت تتكلم وتكثر من الإيماء والحركات وتتقدم بضع خطوات إلى الأمام.

سأل ميجريه الحارسةَ: من هذه؟

- إنها السيدة مارتان. لقد رأيتَ زوجها وهو عائد قبل قليل، ذلك الذي كان يحمل صندوق القمامة وهو صاعد، موظف مكتب التسجيل.

- هل من عادتهما العراك؟

- إنهم لا يتعاركان، هي فقط التي تصرخ أما هو فلا يجرؤ حتى على فتح فمه.

من وقت لآخر كان ميجريه يلقي نظرة خلال المكتب الذي يضم نحو عشرة أشخاص يتحركون، ثم نادى قاضي التحقيق

www.starbooks.shop

الحارسةَ وسألها: من يقوم بإدارة المعمل بعد السيد كوشيه؟

- الدكتور فيليب، وهو لا يسكن بعيداً، إنه يقيم في جزيرة سان لوي.

- هل عنده هاتف؟

- بالتأكيد.

سُمع صوت شخص يتحدث بالهاتف. وفي الطابق العلوي لم يَعُد خيال السيدة مارتان يظهر خلف الستارة، ومن جهة أخرى راح شخص غريب يهبط الدرج ويخترق الفناء بخطى خفيفة حتى بلغ الشارع، واستطاع ميجريه أن يتعرف على قبعة السيد مارتان ومعطفه الواقي من المطر.

كان الوقت منتصف الليل، فأطفأ أصحاب المذياع نور شقتهم، ولم يبق في النوافذ أي ضوء سوى نوافذ المكاتب وحجرة استقبال عائلة سان مارك في الطابق الأول، حيث راح السفير القديم يتجاذب الحديث بصوت خافت مع القابلة.

-٢-

على الرغم من تقدم الوقت فقد كان السيد فيليب لدى وصوله حسن الهندام ذا لحية مشذبة بعناية، وكانت يداه مغلّفتين بقفاز رمادي خشن. كان في الأربعين من عمره تقريباً، وكان نموذجاً كاملاً للرجل المثقف الجاد المهذب. ولا شك أن الخبر أدهشه، بل أقلقه، غير أن انفعاله كان يشوبه شيء أشبه بالتحفظ.

www.starbooks.shop

سأله ميجريه: هل كان السيد كوشيه يدير أعماله بنفسه؟

- لا من قريب ولا من بعيد. إنه هو الذي فتح الأسواق لهذه الأمصال، ولكن ما إن بدأ العمل يروج حتى ترك لي جميع المسؤوليات، لدرجة أنها كانت تمر خمسة عشر يوماً دون أن أراه. خذ مثلاً اليوم بالتحديد، لقد انتظرته حتى الخامسة، فهذه ليلة تسليم الرواتب، وكان عليه أن يُحضر لي الأموال التي يجب دفعها غداً، وهي نحو ثلاثمئة ألف فرنك، وفي الخامسة اضطررت أن أنصرف وتركت له تقريراً على المكتب.

عُثر على التقرير مكتوباً على الآلة الكاتبة تحت يد القتيل. كان تقريراً عادياً، اقتراح بزيادة عامل وفصل أحد الموزعين، ومشروع للإعلان في بلدان أمريكا اللاتينية، وتفاصيل عملية أخرى.

سأله ميجريه قائلاً: إذن ينبغي أن نجد هنا ثلاثمئة ألف فرنك؟

- في الخزنة، والدليل على ذلك أن السيد كوشيه فتحها، فنحن الاثنان، هو وأنا، نملك المفتاح والرقم السري.

ولكن لكي تُفتح الخزنة كان لا بدّ من رفع الجثة، فانتظروا حتى تنتهي مهمة المصورين. وكتب الطبيب الشرعي تقريره: أصيب السيد كوشيه برصاصة في صدره، وكانت الوفاة فورية بسبب قطع الشريان الأورطي، ويمكن تقدير المسافة بين القاتل والضحية بثلاثة أمتار.

ثم قدم السيد فيليب للقاضي بعض الإيضاحات قائلاً: ليس

www.starbooks.shop

لنا في هذه المنطقة سوى المعامل التي تقع خلف هذا المكتب.

ثم نهض وفتح أحد الأبواب، فظهرت وراءه صالة كبيرة صُفَّت فيها آلاف من أنابيب الاختبار، وفيها باب اعتقد ميجريه أنه سمع خلفه شيئاً من الضوضاء.

- ما هذه؟

- هذه مواد الاختبار، وإلى اليمين مكاتب الكتبة والموظفين. ولنا في بانتان مستودعات ومكاتب أخرى نصدّر منها الجزء الأكبر من إنتاجنا، فأنت تعلم طبعاً أن أمصال الدكتور ريفيير معروفة في العالم كله.

- هل هو الذي فتح لها الأسواق؟

- نعم، فلم يكن الدكتور ريفيير يملك ما يكفي من المال، فقام كوشيه بتمويل أبحاثه، ومنذ عشر سنوات أسس معملاً أصغر من هذا المعمل الذي تراه.

- وما يزال الدكتور ريفيير في العمل؟

- لا، لقد مات منذ خمس سنوات في حادثة سيارة.

وأخيراً رُفعت جثة كوشيه، وما إنْ فُتح باب الخزنة حتى سُمعت صيحات التعجب، فقد اختفت كل الأموال التي كانت فيها ولم تبقَ سوى بعض الأوراق الخاصة بالمعمل.

شرح السيد فيليب الأمر قائلاً: ليس فقط ثلاثمئة ألف فرنك التي أحضرها السيد كوشيه بالتأكيد، بل كان يوجد كذلك ستون

www.starbooks.shop

ألفاً من الفرنكات أودعت عصر اليوم، وضعتها أنا بنفسي في هذه الخزنة بعد أن أحطتها بحلقة من المطاط.

لم يُعثر على شيء في حافظة القتيل، أو بالأصح وُجدت فقط تذكرتان مرقّمتان لمسرح مادلين أثارت رؤيتهما نحيب نين التي قالت: إنهما لنا، كانت الخطة أن نذهب إلى المسرح معاً.

كانت تلك هي النهاية، فقد زادت الفوضى، وبدأ المصورون يطوون أجهزتهم الكثيرة، وذهب الطبيب الشرعي ليغسل يديه، وأبدى كاتب قاضي التحقيق تعبه. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الاضطراب، فقد استطاع ميجريه أن يختلي بالقتيل على نحو ما لعدة لحظات.

كان رجلاً قوياً ممتلئ الجسم يميل إلى القصر، وكما هو حال نين لم يكن يخلو من نوع من الابتذال على الرغم من ملابسه البديعة التفصيل وأظافره المقلمة وقميصه الحريري الثمين، أما شعره الأشقر فقد أصبح نادراً، ويبدو أن عينيه كانتا زرقاوين ولهما تعبير صبياني بعض الشيء.

تنهد خلفه صوت يقول: رجل أنيق!

كان ذلك صوت نين التي كانت تبكي بحرقة، واستطردت قائلة: أقسم لك أنه كان نموذجاً للرجل الأنيق، وما كان ليعرف أن شيئاً يمكن أن يدخل السرور على قلبي إلا وأحضره لي، ليس أنا فقط، بل أي شخص. لم أرَ في حياتي إنساناً يوزع بقشيشاً مثله، وعندما كنت ألومه خوفاً من أن يعتبره الناس أحمق كان يجيبني قائلاً: وما أهمية ذلك؟

www.starbooks.shop

سألها ميجريه: هل كان مرحاً؟

- كان أميَل إلى المرح، ولكنه لم يكن مرحاً في الواقع. هل تفهمني؟ هذا أمر يصعب شرحه. كان يشعر بحاجة إلى الحركة وإلى القيام بعمل ما، وإذا مكث هادئاً تجهّم أو انتابه القلق.

- وزوجته؟

- رأيتها مرة من بعيد، ولا أستطيع أن أذكرها بسوء.

- أين يسكن كوشيه؟

- في شارع هوسمان، وفي أغلب الأحيان كان يذهب إلى مولان حيث يملك فيلا هناك.

أدار ميجريه رأسه بسرعة فرأى الحارسة لا تجرؤ على الدخول وتومئ له بإشارات وقد بدا وجهها أكثر بؤساً، وقالت: أرأيت؟ إنه نازل.

- مَن؟

- السيد سان مارك، لا بدّ أنه سمع الضوضاء كلها، ها هو ذا.

ظهر السفير القديم في ملابس البيت يتردد في التقدم. كان قد أدرك حجم المشكلة وشاهد الجثة فوق النقالة تمر بالقرب منه، فسأل ميجريه: ما هذا؟

- رجل مقتول. إنه كوشيه صاحب الأمصال.

www.starbooks.shop

شعر ميجريه أن محدّثه قد خطرت له فكرة فجأة كما لو كان قد تذكر شيئاً، فسأله قائلاً: هل تعرفه؟

- لا. أقصد أنني سمعت عنه.

- وبعد؟

- لا شيء، لا أعرف شيئاً، متى الـ...

- الجريمة؟ لا بدّ أنها وقعت بين الثامنة والتاسعة.

تنهد السيد سان مارك وسوّى شعره المشعث وأومأ برأسه لميجريه، ثم اتجه نحو الدرج الذي يؤدي إلى شقته.

كانت الحارسة قد انصرفت حيث انضمت إلى شخص كان يروح ويجيء في الفناء وهو ينحني إلى الأمام، وعندما عادت إلى مفتش المباحث سألها قائلاً: من هذا؟

- السيد مارتان. إنه يبحث عن فردة قفاز ضاعت منه. ينبغي أن أقول لك إنه لا يخرج أبداً دون قفاز، حتى ولو كان ذلك لشراء السجائر من مسافة خمسين متراً من هنا.

أما السيد مارتان فكان يدور حول صناديق القمامة وقد أشعل عود كبريت ليضيء المكان، وأخيراً صعد إلى مسكنه مرة أخرى.

وفي الفناء تصافحت الأيدي وانصرف رجال النيابة، وتبادل قاضي التحقيق حديثاً قصيراً مع ميجريه، قال له: سأتركك تتصرف، وطبعاً ستحيطني علماً.

www.starbooks.shop

أما السيد فيليب الدقيق فقد انحنى أمام مفتش المباحث قائلاً: هل أنت بحاجة إليّ؟

- سأراك غداً، أظن أنك ستكون في مكتبك؟

- كالعادة، في التاسعة تماماً.

-٣-

فجأة حلت لحظة مؤثرة مع أنها لم تتسم بأدنى حدث. كان الفناء ما يزال غارقاً في الظلام حيث يضيئه مصباح واحد فقط، ثم الدهليز بمصباحه المتسخ الباهت، وفي الخارج تتحرك السيارات فتكشف أشجار ميدان ألفاج بمصابيحها القوية. أما القتيل فقد أخذوا جثته من المكان، ولكن المكتب بدا وكأنه قد تعرض للغزو، ولم يفكر أحد بإطفاء الأنوار فبقي المعمل مُضاءً كأن فيه عملاً ليلياً مكثفاً.

وهكذا اجتمع في الفناء ثلاثة أشخاص لم يكن أحدهم يعرف الآخرَين قبل ذلك بساعة واحدة، ومع ذلك فقد بدا وكأن صلات غامضة قد جمعتهم. بل أكثر من ذلك، كانوا كأفراد عائلة بقوا وحيدين بعد انفضاض الجنازة عندما انصرف الذين لا يهمهم الأمر.

لم يكن إلا شعور خفي من جانب ميجريه هو الذي جعله يقول وهو يتأمل وجه الحارسة الشاحب: هل وضعت ولديك في السرير؟

www.starbooks.shop

- نعم، ولكنهما لم يناما. إنهما قلقان، يبدو أنهما يشعران.

أرادت السيدة بورسييه أن تسأل سؤالاً يكاد يخجلها، ولكنه كان سؤالاً مهماً بالنسبة إليها، فقالت: هل تعتقد...

وجالت بعينيها خلال الفناء، وبدا أنها تتوقف عند جميع النوافذ المطفأة، ثم استطردت قائلة: هل تعتقد أنه شخص من العمارة؟

كانت تحدق النظر في الدهليز، ذلك الرواق الذي يظل مفتوحاً حتى الحادية عشرة مساء، والذي يصل بين الفناء والشارع ويسمح بدخول العمارة لكل مجهول من الخارج.

أما نين فقد اتخذت وضعاً غامضاً، ومن آن إلى آخر كانت تسترق النظر إلى مفتش المباحث.

قال السيد ميجريه: التحقيق سيجيب عن سؤالك يا سيدة بورسييه، أما الآن فثمّة شيء يبدو أكيداً، هو أن الذي سرق ثلاثمئة ألف فرنك ليس هو نفسه الذي قتل. على الأقل هذا احتمال قائم ما دام السيد كوشيه يسد الخزنة بظهره. وبالمناسبة، هل كان هناك ضوء في المعمل هذا المساء؟

- دعني أفكر. نعم، أعتقد ذلك، ولكن ليس مثل الضوء الذي يبدو الآن، فلا بدّ أن السيد كوشيه قد أضاء مصباحاً أو اثنين كي يذهب إلى الأحواض التي توجد بين الحجرات.

دخل ميجريه ليطفئ الأنوار كلها في حين بقيت الحارسة في الخارج، فقد كانت تخشى الدخول رغم أن الجثة لم تعد هناك.

www.starbooks.shop

وعندما عاد إلى الفناء وجد نين في انتظاره. وسمع صوتاً في مكان ما فوق رأسه، صوت شيء يحتك بزجاج، ولكن النوافذ كلها كانت مغلقة والأنوار كلها كانت مطفأة. شخص ما تحرك، شخص ما كان يسهر في ظلام إحدى الحجرات.

- إلى الغد يا سيدة بورسييه، سأكون هنا قبل فتح المكاتب.

- سأمشي معك، فعليّ أن أغلق البوابة.

عندما وقفا على الرصيف قالت نين: ظننت أن عندك سيارة.

ولم تحاول الابتعاد، بل أردفت وهي تنظر إلى الأرض قائلة: في أي جهة تسكن؟

- على بعد خطوات من هذا المكان، في شارع ريتشارد لونوار.

- أظن أن خدمة المترو توقفت بسبب تأخر الوقت، أليس كذلك؟

- بلى، أظن ذلك.

- أريد أن أخبرك بشيء.

- إنني أنصت لك.

بقيت لا تجرؤ على النظر إليه، ومن خلفهما سمعت صوت حارسة العمارة وهي تقفل الباب، ثم سمعت خطواتها وهي في طريقها إلى غرفتها. لم يكن في الميدان إنسان، وكانت النافورات تغني ودقت ساعة مقر الحكومة معلنة الواحدة.

www.starbooks.shop

- قد تجد أنني أتجاوز حدودي، ولا أدري ماذا ستظن بي. أخبرتك أن ريمون كان كريماً جداً وكان لا يعرف قيمة المال، كان يعطيني كل ما أريد، هل تفهم؟

- وبعد؟

- الأمر محرج. كنت أطلب أقل ما يمكن، وبما أنه كان معي دائماً فإنني لم أكن بحاجة إلى شيء، واليوم كان من المفروض أن أتناول معه العشاء.

- أنت مُعدَمة؟

اعترضت قائلة: ليس هذا، إنه أقبح. كنت قد نويت أن أطلب منه مالاً هذا المساء، فقد دفعت عدة فواتير هذا اليوم.

كانت تتعذب وترقب ميجريه وهي على استعداد لأن تتراجع عند أي إشارة، واستطردت قائلة: لم أتصور أبداً أنه لن يأتي، وعندما وصلت إلى هنا فقط تبين لي أنه ليس معي ما يكفي لدفع أجرة السيارة.

- وفي بيتك؟

- أنا أقيم في فندق.

- هل لديك أي من المال المدخر.

- أنا؟!

ضحكت بعصبية، ثم قالت: ولماذا أدّخر؟ هل كنت أعلم الغيب؟ حتى لو كنت أعلم فإنني ما كنت لأحب الادخار.

www.starbooks.shop

تنهد ميجريه قائلاً: امشي معي حتى شارع بورماشيه، هناك فقط ستجدين سيارة في هذه الساعة. ماذا ستفعلين؟

- لا شيء، إنني...

ولكنها ارتعشت، فقد كانت ثيابها لا تقي من البرد.

- ألم يكتب وصيته؟

- كيف لي أن أعرف؟ وهل تعتقد أنني أهتم بمثل هذه الأمور عندما يكون كل شيء على ما يرام؟ لقد كان ريمون رجلاً كريماً. إنني....

كانت تبكي دونما ضوضاء وهي تسير، فدسّ في يدها ورقة من فئة مئة فرنك، وأشار لسيارة كانت تمر، ثم تمتم وهو يدس يديه في جيبيه ويمضي قائلاً: إلى الغد. قلت لي فندق بيغال؟

* * *

www.starbooks.shop

الفصل الثالث

-١-

عندما غادر ميجريه منزله في نحو الثامنة صباحاً كان عليه أن يختار بين ثلاثة أشياء يجب أن يقوم بها جميعاً في ذلك اليوم: زيارة متاجر ميدان ألفاج واستجواب العاملين فيها، وزيارة السيدة كوشيه التي أحيطت علماً بالأحداث عن طريق شرطة القسم، وأخيراً استجواب نين من جديد.

وكان قد اتصل بدائرته في مركز الشرطة الجنائية فور استيقاظه من نومه، حيث قرأ على معاونيه قائمة بأسماء سكان العمارة التي وقعت فيها الحادثة وكل الأشخاص الذين يتصلون بالمأساة من قريب أو من بعيد، وطلب منهم الحصول على معلومات مفصلة.

كان السوق في شارع ريتشارد لونوار مزدحماً بالمتسوقين، وكان الجو من البرودة بحيث رفع ميجريه ياقة معطفه. وكان ميدان ألفاج قريباً، ولكن لا بدّ للوصول إليه من السير على الأقدام. وعندئذ مر ترام متجهاً ناحية ميدان بيغال، الأمر الذي جعل ميجريه يقرر أن يبدأ بزيارة نين.

www.starbooks.shop

من الطبيعي أنها لم تكن قد استيقظت من نومها، وفي مكتب الفندق عُرف ميجريه وأثار حضوره القلق.

- هل تورطت في قصة مزعجة؟ إنها فتاة هادئة جداً.

- هل تستقبل أناساً كثيرين؟

- لا أحد، ما عدا صديقها.

- الكهل أم الشاب؟

- ليس لها غير صديق واحد، لا هو بالكهل ولا هو بالشاب.

كان الفندق مريحاً وكان فيه مصعد وهواتف في الحجرات. انتقل ميجريه إلى الطابق الثالث وطرق باب الغرفة رقم ٢٧ فسمع شخصاً يتحرك في السرير، ثم صوتاً يهمهم قائلاً: ما الأمر؟

- افتحي يا نين.

لا بدّ أنها خرجت في تلك اللحظة من تحت الأغطية وتحركت بصعوبة حتى بلغت الباب وفتحته، فدخل ميجريه إلى الغرفة المعتمة ثم مضى إلى الستائر فكشفها.

سألته قائلة: كم الساعة الآن؟

- لم تبلغ التاسعة بعد، لا تنزعجي.

كانت عيناها شبه مغمضتين بسبب الضوء الباهر، ولاحظ أنها لم تكن جميلة على طبيعتها، بل كانت أقرب إلى الفتاة الريفية الساذجة. ومرت بيدها فوق جبينها مرتين أو ثلاث مرات، وأخيراً

www.starbooks.shop

جلست على السرير جاعلة من وسادتها متكأ لها، ثم رفعت سماعة الهاتف وطلبت قهوة الصباح.

قالت لميجريه: يا لها من أحداث! ألست ناقماً عليّ لأنني اقترضت نقوداً منك مساء أمس؟ يا له من أمر سخيف! لا بدّ لي من بيع الحليّ.

- هل تملكين منها الكثير؟

أشارت إلى طاولة الزينة، وكانت عليها علبة صغيرة فيها بعض الخواتم وسوار وساعة تبلغ قيمتها كلها خمسة آلاف فرنك على الأكثر.

ثم طُرق باب الحجرة المجاورة فأرهفت نين السمع، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة مبهمة عندما سمعت الطرق يتكرر بإصرار، فسأل ميجريه قائلاً: من؟

- لا أدري، ربما جيراني. ولكن لن يمكن إيقاظهما في هذه الساعة.

- ماذا تعنين؟

- إنهما لا يستيقظان أبداً قبل الرابعة بعد الظهر.

في تلك الأثناء فُتح باب الغرفة المجاورة، وكذلك فُتح باب حجرة نين وبدت عنده خادمة تحمل صينية عليها قهوة بالحليب وبعض المخبوزات، فنظرت إلى ميجريه وسألته قائلة: أتسمح؟

وبينما كانت تغمس قطع الفطير في القهوة كانت تواصل

www.starbooks.shop

الإصغاء كما لو كانت مهتمة بما يدور إلى جوارها على الرغم من كل ما مرّت به هي نفسها، ثم قالت: هل سأتورط في هذه القصة؟ سيكون الأمر مزعجاً لو تحدثوا عني في الصحف، وسوف يكون كذلك بالنسبة إلى السيدة كوشيه أيضاً.

ثم بدأ الباب يُطرق طرقات خفيفة متلاحقة فصاحت قائلة: ادخل.

كانت القادمة امرأة في نحو الثلاثين من عمرها وقد تدثرت بمعطف من الفراء فوق قميص نومها، وأوشكت أن تتراجع عندما لمحت ظهر ميجريه العريض، ثم تجرأت وهمهمت قائلة: لم أعلم أن عندك أحداً.

التفت ميجريه عند سماعه لذلك الصوت الرخيم ورمق المرأة فرأى وجهاً لا لون له ذا أجفان منتفخة، ولاحظ في عيني نين إيماءة سريعة أجابت عن تساؤله، فقد كانت هي فعلاً الجارة التي تقيم في الغرفة المجاورة.

- ماذا أصابك؟

- لا شيء. لقد استقبل زوجي بعض الضيوف، لذلك سمحت لنفسي...

ثم جلست على الأرض بتكاسل بجانب السرير، وتنهدت قائلة كما فعلت نين من قبل: كم الساعة الآن؟

فقال ميجريه: إنها التاسعة.

كانت تشعر بالبرد فقامت لتلتصق بالمدفأة، ثم نظرت من

www.starbooks.shop

النافذة وقالت: لن تلبث السماء أن تمطر.

كان كلامها كله مشوباً بانقباض ويأس، ثم قالت: إنني أزعجكما، أليس كذلك؟ ولكن الأمر يبدو مهماً، إنه يتعلق بوالد روجيه الذي مات.

كان ميجريه ينظر إلى نين فلاحظ أنها عبست فجأة كأن خاطرة ما مَرَّت في ذهنها، ثم سأل المرأة: هل تعرفين والد روجيه؟

- لم أرَه على الإطلاق. ولكن أخبريني يا نين، ألم يحدث لصديقك شيء؟

تبادل مفتش المباحث ونين نظرة ذات مغزى ثم سألها قائلاً: لماذا؟

- لست واثقة، فالأمر معقد بعض الشيء. لقد تذكرت لتوّي أن روجيه أخبرني ذات يوم أن أباه يتردد على الفندق، وكان هذا الأمر يسلّيه، غير أنه كان يفضّل أن لا يصادفه، وذات مرة شاهده برفقتك أنت بالذات.

كفّت نين عن الأكل ووجهها يكشف عن قلقها، وسألتها: ابنه؟

قالتها ببطء شديد ونظرها معلق بإطار النافذة، فصاحت الأخرى قائلة: وعلى ذلك... وعلى ذلك فإن صديقك هو الذي مات! يبدو أن في الأمر جريمة.

سألها ميجريه: هل اسم عائلة روجيه هو كوشيه؟

www.starbooks.shop

- نعم، اسمه روجيه كوشيه.

صمت ثلاثتهم مضطربين، وبعد برهة طويلة سُمعت خلالها همهمة صوت في الحجرة المجاورة استطرد مفتش المباحث قائلاً: ماذا يعمل؟

- ماذا تقصد؟

- ما وظيفته؟

فقالت المرأة فجأة: أنت من الشرطة، أليس كذلك؟

بدا عليها الاضطراب، وربما أوشكت أن تلوم نين لأنها أوقعتها في الفخ، فقالت نين وهي تدفع يدها تحت أغطية السرير التماساً للدفء: إن مفتش المباحث لطيف جداً.

- كان عليّ أن أخمّن ذلك، ولكنك كنت على علم قبل أن أدخل.

فقال ميجريه: أنا لم أسمع بروجيه على الإطلاق، والآن ينبغي عليك أن تزوديني ببعض المعلومات عنه.

- أنا لا أعرف الكثير، فنحن لم نتزوج إلا من نحو أسبوعين.

- هل له عمل؟

كانت هذه الكلمة كافية لتزيد من حدة الضيق، فقالت: لا أدري.

- معنى هذا أنه لا يقوم بأي عمل. هل لديه ثروة؟ هل ينفق بسخاء؟

www.starbooks.shop

- لا، إننا نأكل دائماً في مطعم رخيص يقدم الوجبة بستة فرنكات.

- هل يتحدث عن أبيه كثيراً؟

- لم يتحدث عنه غير مرة واحدة كما أخبرتك.

- هل تستطيعين أن تصفي لي زائره؟ هل سبقت لك مقابلته؟

- لا، إنه رجل... كيف أقول؟ لقد ظننته من محصّلي الديون، اعتقدت أن الأمر كذلك وأن روجيه مَدين.

- وهل هو حسن الهندام؟

- لقد رأيت قبعته ومعطفاً أسمر وقفازاً.

كان بين الحجرتين باب مقفل، وكان باستطاعة ميجريه أن يُلصق به أذنه ويسمع كل شيء، غير أنه لم يحبّ أن يفعل ذلك أمام المرأتين.

ظهر التوتر الشديد على نين التي بدت عصبية وكانت حركاتها مضطربة، وكان المرء يشعر أنها باتت تتوقع المصائب جميعاً وأنها لا تستشعر قوة للمقاومة، بل ولا حتى محاولة الفهم. أما الأخرى فكانت أكثر هدوءاً، وربما كان ذلك لأنها كانت أكثر خبرة بالحياة.

سألها ميجريه قائلاً: ما اسمك؟

- سيلين.

- هل لك مهنة؟

www.starbooks.shop

- كنت أعمل مصففة شعر في المنازل.

كانت هناك همهمة صوت ما تزال تصل إلى آذانهم من الغرفة الأخرى. أما نين فقد كانت تتأمل الحجرة من حولها، وفجأة انفجرت منتحبة وهي تتلعثم: يا إلهي! يا إلهي!

فقالت سيلين بهدوء: يا لها من قصة غريبة! لو كان في الأمر جريمة حقاً فسنجد ما يزعجنا.

- أين كنت بالأمس في نحو الثامنة مساء؟

فكرت وقالت: انتظر. الثامنة، أجل، كنت في السيرانو.

- وهل كان روجيه بصحبتك؟

- لا، إننا لا نبقى معاً طوال الوقت. لقد ذهب لقضاء عمل يخصه ثم التقينا عند منتصف الليل في شارع فونتين.

- وهل أخبرك من أين جاء؟

- لم أسأله عن شيء.

من خلال النافذة كان ميجريه يلمح ميدان بيغال وحديقته الصغيرة، وفجأة إذا به يستدير ويمشي جهة الباب قائلاً: أرجو انتظاري.

www.starbooks.shop

خرج ميجريه فطرق الباب المجاور وفتحه فوجد رجلاً يرتدي البيجاما ويجلس على المقعد الوحيد الذي يوجد في الغرفة، وكان هناك رجل آخر يسير وهو يكثر من الحركات. كان ذلك هو السيد مارتان الذي كان ميجريه قد صادفه مرتين عشية اليوم السابق في فناء ميدان ألفاج.

- ها قد وجدت قفازك؟

كان ميجريه ينظر إلى يدي موظف التسجيل الذي غدا شاحباً حتى اعتقد ميجريه لحظة أنه لن يلبث أن يفقد وعيه. كانت يداه ترتعشان وكان يحاول أن يتكلم دون أن يوفق إلى ذلك، فقال: إنني... إنني...

لم يكن الرجل قد حلق ذقنه بعد وكانت عيناه محاطتين بهالة حمراء وشفتاه رخوتين تكشفان عن ضعفه، فقال له ميجريه: هدّئ من روعك يا سيد مارتان، لم أتوقع أن أقابلك هنا، وخصوصاً في وقت من المفروض أن يكون مكتبك فيه مفتوحاً منذ فترة طويلة.

كان يراقب الرجل الطيب من رأسه إلى أخمص قدمه، وكان ينبغي عليه بذل مجهود حتى لا تأخذه الشفقة به، فقد كان المسكين يبدي ارتباكاً شديداً. من حذائه حتى رباط عنقه كان السيد مارتان يمثل النموذج الكاريكاتوري للموظف، موظف فاضل ومتكلف في أناقته، له شاربان أتقن تشذيبهما، ولا ذرة من تراب فوق ملابسه، وربما اعتقد أن خروجه دون قفاز أمر معيب.

www.starbooks.shop

والآن لا يدري كيف يتصرف حيالهما، حيال يديه. كانت نظرته تنقب في أركان الحجرة التي تسودها الفوضى كما لو كان يبحث فيها عن إلهام، فقال له ميجريه: هل تسمح لي بسؤال يا سيد مارتان؟ منذ متى وأنت تعرف روجيه كوشيه؟

لم يكن الرعب هو الذي ظهر، وإنما كان الخيال. قال: أنا؟

- نعم، أنت.

- منذ... منذ زواجي.

كان يقول ذلك كما لو كان الأمر بديهياً لا يحتاج لتوضيح، فقال ميجريه: لم أفهم.

- إن روجيه هو ابن زوجتي.

- وابن ريمون كوشيه؟

- نعم، ما دام...

استعاد اطمئنانه ورباطة جأشه وقال: زوجتي هي الزوجة الأولى لكوشيه، وقد أنجبت منه ابناً هو روجيه، وعندما انفصلت عن زوجها تزوجتها أنا.

أحدث هذا البيان تأثير عاصفة شديدة سريعة في ذهن ميجريه. لقد تغير على إثره كل شيء في عمارة ميدان ألفاج وتغيرت طبيعة الأحداث. توضحت بعض النقاط، وعلى النقيض من ذلك أصبح بعضها الآخر مدعاة لبلبلة الأفكار وإقلاقها أكثر من ذي قبل، حتى إن ميجريه لم يعرف ماذا يقول. كان بحاجة إلى

www.starbooks.shop

تنظيم أفكاره، فكان ينقل نظره بين الرجلين بقلق متزايد.

في الليلة الماضية سألته حارسة العمارة وهي تنظر إلى جميع النوافذ التي تبدو للعيان من الفناء قائلة: هل تعتقد أنه شخص من البيت؟ كانت نظرتها متعلقة بالدهليز، كانت تأمل أن يكون القاتل قد ولج منه وأن يكون شخصاً من خارج العمارة.

لا، كانت المأساة محصورة في العمارة. لم يكن ميجريه قادراً على تعليل ذلك الافتراض، ولكنه كان واثقاً منه.

ولكن أي مأساة؟ إنه لا يدرك منها شيئاً. كل ما في الأمر أنه كان يشعر بأن خيوطاً خفية تمتد وتوصل بين جهات مختلفة في المكان، فتخرج من ميدان ألفاج إلى فندق شارع بيغال هذا، ومن شقة آل مارتان إلى مكتب الأمصال التابع للدكتور ريفيير، ومن غرفة نين إلى غرفة ذلك الثنائي البليد.

ربما كان أكثر ما يثير القلق في الموضوع هو مشهد السيد مارتان وهو ملقى في هذه المتاهة كنحلة لا تعي. كانت يداه ما تزالان مغلّفتين بالقفازات، وكان معطفه بحد ذاته يمثل له برنامج حياة كريمة، وكانت نظرته قلقة تسعى إلى التعلق بمكان ما دون أن توفق إلى ذلك، وراح يتلعثم قائلاً: جئت لأخبر روجيه...

- أجل.

كان ميجريه ينظر إلى عينيه نظرة هادئة عميقة وهو يكاد يتوقع لمحدثه أن يتضاءل من الكرب، واستطرد مارتان قائلاً: لقد اقترحت زوجتي أنه من الأفضل أن نكون نحن الذين...

www.starbooks.shop

- أفهم، أفهم.

- إن روجيه سريع الـ...

فأكمل ميجريه قائلاً: سريع التأثر، شاب عصبي.

وراح الشاب، وكان قد بلع كوب الماء الثالث، يرمقه بنظرة حاقدة. كان في الخامسة والعشرين تقريباً، غير أن ملامحه كانت قد كلّت وذبلت منه الجفون، وكانت بشرته كامدة، ولكنه كان ما يزال وسيماً إلى حد ما.

- قل لي يا روجيه: هل تلتقي بوالدك كثيراً؟

- في بعض الأحيان.

- أين؟

كان ميجريه ينظر إليه نظرة قاسية.

- في مكتبه، أو في المطعم.

- متى رأيته آخر مرة؟

- لا أعرف، منذ عدة أسابيع.

- وهل طلبت منه مالاً؟

- كما يحدث دائماً.

- باختصار: كنت تعيش على نفقته؟

- لقد كان من الثراء بحيث...

- لحظة. أين كنت بالأمس في نحو الثامنة مساء؟

www.starbooks.shop

لم يُبدِ تردداً وقال: في مطعم سيليكيت.

قالها مصحوبة بابتسامة ساخرة تعني: لعلك تعتقد أنني لا أعلم إلى أين تريد أن يؤدي سؤالك؟

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- كنت بانتظار أبي.

- إذن فقد كنت بحاجة إلى مال وكنت تعرف أنه سيأتي إلى السيليكيت؟

- إنه يكون هناك كل ليلة تقريباً مع صديقته، كما أنني سمعته يتحدث بالهاتف عند العصر لأننا نسمع ما يقال في الطرف الآخر من الباب.

- وعندما لم يأتِ أبوك ألم تخطر لك فكرة الذهاب إليه في مكتبه بميدان ألفاج؟

- لم يحصل.

التقط ميجريه من فوق المدفأة صورة فوتوغرافية للشاب ووضعها في جيبه قائلاً: هل تسمح؟

- لو كان هذا يسرّك.

وراح السيد مارتان يقول: ألا تعتقد...

قال ميجريه: أنا لا أعتقد أي شيء، وهذا يجعلني أفكر بتوجيه بعض الأسئلة إليك. ما هي العلاقات بينك وبين روجيه؟

- لم يكن يأتي دائماً.

www.starbooks.shop

- وعندما كان يأتي؟

- كان لا يلبث غير دقائق معدودة.

- وهل أمه على علم بطبيعة حياته؟

- ماذا تريد أن تقول؟

- أرجو أن لا تتغابى يا سيد مارتان. هل تعلم زوجتك أن ابنها يعيش دون أي عمل؟

راح الموظف ينظر إلى الأرض ضيقاً، ثم قال متنهداً: لقد حاولت كثيراً أن أدفعه إلى العمل.

في تلك اللحظة بدا الشاب يدق فوق المنضدة بجزع وقال: أظنك تلاحظ أنني ما زلت في البيجاما وأن...

فسأله قائلاً: هل تسمح فتخبرني إن كنت رأيت بالأمس أحداً من معارفك في السيليكيت؟

- رأيت نين.

- وهل تحدثت إليها؟

- عفواً، إنني لم أوجه إليها حديثاً على الإطلاق.

- وفي أي مكان كانت تجلس؟

- إلى المائدة الثانية قرب المدخل.

- أين عثرت على قفازك يا سيد مارتان؟ إنْ لم تخنّي ذاكرتي فقد بحثت عنه تلك الليلة بالقرب من صناديق القمامة في الفناء.

www.starbooks.shop

ضحك السيد مارتان ضحكة قصيرة عسيرة وقال: كان في البيت. تصور أنني خرجت بفردة واحدة ولم ألاحظ ذلك!

- إلى أين ذهبت عندما غادرت ميدان ألفاج؟

- تنزهت على طول الطريق، فقد كنت... كنت أشعر بصداع.

- هل تتنزه غالباً في المساء دون زوجتك؟

- أحياناً.

كان يتعذب، ولم يكن يدري ماذا يصنع بيديه المغلفتين في القفاز.

- وهل أنت ذاهب الآن إلى مكتبك؟

- لا، لقد اعتذرت بالهاتف، فأنا لا أستطيع أن أترك زوجتي في...

- حسناً، اذهب إذن لتكون إلى جوارها.

مكث ميجريه، وراح الرجل الطيب يبحث عن طريقة لائقة للاستئذان، فقال: إلى الملتقى يا روجيه.

قالها متلعثماً، ثم استطرد قائلاً: أعتقد... أعتقد أنه من الأفضل أن تزور أمك.

ولكن روجيه اكتفى برفع كتفيه والنظر إلى ميجريه بجزع، وفي تلك اللحظة سُمعت ضوضاء السيد مارتان وهي تتلاشى على الدرج.

www.starbooks.shop

بقي الشاب صامتاً لا يقول شيئاً، فسأله ميجريه بتمهّل: أليس لديك أي تعليق تريد الإدلاء به؟

- ليس لديّ ما أقول.

- لو كان هناك ما تريد أن تقوله فمن الأفضل أن تدلي به الآن على أن تدلي به فيما بعد.

- لن يكون لديّ ما أقوله لك فيما بعد. حسناً، ثمة شيء أريد أن أقوله لك حالاً، وهو أنك تدس نفسك في الأمور أكثر من اللازم.

- بالتأكيد ما دمت لم تقابل أباك مساء أمس فلا بدّ أنك الآن بلا مال؟

- هو ما تقول.

- وأين ستجد المال؟

- لا تشغل بالك بشأني أرجوك. أتسمح؟

بثبات شرع ميجريه يخطو بضع خطوات في الغرفة، ثم خرج ودخل الغرفة المجاورة حيث كانت المرأتان في انتظاره، وفي تلك المرة كانت سيلين هي التي تبدو أكثر اضطراباً، أما نين التي جلست على المقعد فقد كانت تقرض منديلاً بهدوء وهي تنظر إلى فراغ النافذة بعينيها الواسعتين الحالمتين.

سألته سيلين: وماذا بعد؟

- لا شيء، تستطيعين الانصراف.

www.starbooks.shop

قالت: هل أبوه فعلاً هو الذي... ثم أضافت فجأة وقد تغضن جبينها: ولكنه عندئذ سيرث كثيراً من المال!

وانصرفت وهي تطيل التفكير.

-٣-

عندما مشيا معاً في الشارع سأل ميجريه رفيقته قائلاً: إلى أين أنت ذاهبة؟

فتحركت حركة مبهمة غير مكترثة، ثم قالت: سأذهب إلى مسرح الطاحونة لأرى إن كانوا يرغبون في إعادتي إلى العمل.

- هل كنت تحبين كوشيه؟

- أخبرتك بالأمس. لقد كان نموذجاً للرجل الأنيق، والمرء لا يعثر على أمثاله كثيراً. أقسم لك عندما أفكر أن شخصاً قذراً قد...

وسالت عبرتان، ثم لا شيء بعد ذلك. ثم قالت وهي تدفع باباً صغيراً لمقهى رخيص: هذا هو المكان.

كان ميجريه يفكر بالذهاب إلى ميدان ألفاج، إلا أن رؤية جهاز الهاتف جعلته يتذكر أنه لم يتصل بمكتبه منذ مدة وربما كان هناك بريد عاجل في انتظاره، فطلب سكرتير المكتب وقال: أهذا أنت يا جان؟ ألا يوجد شيء لي؟ كيف؟ سيدة تنتظر منذ ساعة؟ في ملابس الحداد؟ أليست هي السيدة كوشيه؟ ماذا؟ زوجة السيد مارتان؟ أنا قادم.

www.starbooks.shop

زوجة السيد مارتان في ملابس الحداد وتنتظره منذ ساعة في ردهة مركز الشرطة! كل ما يعرفه ميجريه عنها لا يعدو خيالاً من الظل، ذلك الخيال الغريب الذي رآه في اليوم السابق خلف ستارة الطابق الثاني عندما كانت تتحرك بعنف واضطراب، وأخبرته حارسة البيت أن ذلك يحصل في أغلب الليالي.

تذكر ميجريه موظف التسجيل الطيب المسكين الذي نسي قفازه وراح يتنزه بمفرده في ظلام الطريق، وعندما غادر الفناء في الواحدة صباحاً كانت الضوضاء تنبعث من النافذة.

ارتقى درج مركز الشرطة بتمهل وصولاً إلى الردهة في الأعلى. كانت هناك عشرة مقاعد ومنضدة أشبه بمنضدة البلياردو، وعلى الجدار لوحة الشرف وفيها مئتا صورة تمثل مفتشين قتلوا أثناء تأدية الخدمة، وعلى مقعد في الطرف جلست سيدة ترتدي السواد.

كانت متوترة جداً، تحمل حقيبتها بإحدى يديها وتستقر يدها الأخرى على مقبض مظلتها، لها شفتان دقيقتان ونظرة حادة تصوبها أمامها. ولم تأتِ حراكاً عندما شعرت بأن أحداً يلاحظها، وبهذه الملامح الجامدة كانت تنتظر.

* * *

www.starbooks.shop

الفصل الرابع

-١-

استقبلت ميجريه بتلك الأنفة العدائية، فقال لها: تفضلي بالجلوس يا سيدتي.

أشار إلى مقعد أمام طاولة مكتبه فاستقرت فيه متخذة نفس الوضع الذي كانت عليه في الردهة قبل ذلك دون أن يلامس كتفاها ظهر المقعد. وضع وقور بلا شك، ولكنه وضع معركة أيضاً!

- أظنك تتساءل مَن أنا يا سيدي المفتش.

- لا.

قصد ميجريه أن يحيّرها بهذه الطريقة منذ أول لقاء بينهما، ولم يكن جواباً اعتباطياً أيضاً، فقد كان يدرك أن هذا ضروري لتحقيقه. واعتدل في كرسيه وهو يدخن غليونه ويسحب منه أنفاساً قصيرة، فارتجفت السيدة مارتان، أو بالأحرى تصلّب كتفاها.

- ماذا تقول؟ ظننت أنك لم تكن تنتظر أن...

www.starbooks.shop

- أجل.

ابتسم لها ابتسامة ساذجة، وفجأة راحت الأصابع تتحرك بقلق في القفاز الأسود وسرحت نظراتها، ثم طرق عقلَها إلهام مفاجئ فقالت: هل تلقيت خطاباً من مجهول؟

كانت تؤكد وهي تستفسر، وقد اتخذت مظهر الواثقة مما تقول الأمر الذي جعل المفتش يبتسم ابتسامة عريضة، وقال: لم أتلقَ خطابات من مجهول.

فهزت رأسها متشككة وقالت: لا تحاول أن تقنعني.

دمدم ميجريه بمكر وهو يطلق نفخة ضخمة من الدخان قائلاً: هل كانت لديك ملابس حداد من قبل؟

- لقد توفيت أختي منذ ثلاث سنوات، أقصد أختي المقيمة في بلوا، التي تزوجت مفتش مباحث، وهكذا ترى أن...

- أن ماذا؟

لا شيء. لقد كانت تحذره، كان الوقت مناسباً لتُشعره أنها ليست كأي امرأة. ومن جهة أخرى بدت عصبية، ذلك لأن الحديث الذي كانت قد أعدته لم يعُد مفيداً بسبب ذلك المفتش الثقيل.

- متى عرفتِ بموت زوجك الأول؟

- طبعاً صباح اليوم مثل الجميع، وحارسة العمارة هي التي أخبرتني أنك تتولى هذا الأمر، ولما كان موقفي حساساً... قد لا

www.starbooks.shop

تستطيع أن تدرك.

- أجل، وبالمناسبة، ألم يأتِ ابنك لزيارتك عصر الأمس؟

- إلى ماذا تريد أن تلمّح؟

- لا شيء، مجرد سؤال.

- تستطيع الحارسة أن تخبرك بأنه لم يأتِ لزيارتي منذ ثلاثة أسابيع على الأقل.

كانت تتكلم ببرود وقد ازدادت نظرتها عدوانية. هل أخطأ ميجريه إذ لم يتركها تكمل حديثها؟

- إنني سعيد بمسعاك لأنه يدل على رقتك و...

غيرت كلمة «رقّة» شيئاً ما في عيني المرأة الرماديتين، فحنت رأسها تعبيراً عن الشكر ثم قالت: توجد مواقف شديدة الصعوبة، لا أحد يدرك ذلك، حتى زوجي الذي يشير عليّ بعدم ارتداء الحداد. وأنت تلاحظ أنني أرتديه دون أن أرتديه، فلا خمار ولا نقاب، مجرد ملابس سوداء.

هز رأسه مؤيداً ووضع غليونه فوق المنضدة، واستطردت هي قائلة: ليس لأننا منفصلان ولأن روجيه أتعبني، إنني...

ثم استعادت اطمئنانها وبدأت تقترب بلا شعور من الحديث الذي أعدته سلفاً، فاستطردت قائلة: وخصوصاً في عمارة كبيرة كهذه فيها ثمان وعشرون عائلة. وأية عائلات؟ أنا لا أتحدث عن سكان الطابق الأول، فإذا كان السيد سان مارك قد تلقى تربية طيبة

www.starbooks.shop

فإن زوجته قد لا تحيّي الناس نظير ذهب العالم كله، عندما يتلقى المرء تربية محترمة فمن الصعب عليه أن...

- هل وُلدتِ في باريس؟

- كان أبي بائع حلوى في ميو.

- في أيّ سن تزوجتِ السيد كوشيه؟

- كنت في العشرين من عمري. كان كوشيه يتجول ويؤكد أنه يكسب بسخاء وأنه قادر على إسعاد امرأة.

تجمدت نظرتها وأرادت أن تتأكد أن ميجريه لن يسخر منها، ثم استطردت قائلة: أفضّل أن لا أقول كم قاسيت معه. كل الأموال التي كان يحصل عليها كان يفقدها في المضاربات السيئة. كان يدّعي أنه سيصبح غنياً ويغير مكانه ثلاث مرات في العام، لدرجة أنه عندما وُلد ابني لم يكن لدينا درهم لمصروفنا وكان على أمي أن تدفع ثمن القماط!

وأخيراً وضعت مظلتها أمام المكتب، فتصور ميجريه أنها ستتحدث بنفس الطريقة الحادة التي كانت تتحدث بها مساء اليوم السابق عندما لمح خيال ظلها وراء الستارة، على أنها استطردت قائلة: إذا كان المرء لا يستطيع أن يَعول امرأة فلا ينبغي له أن يتزوج، هذا هو ما أقوله، وخصوصاً إذا كان الشخص لا يتمتع بشيء من عزة النفس. إنني لا أكاد أستطيع أن أحصي جميع المهن التي مارسها كوشيه. كنت أطلب منه أن يبحث عن مركز محترم بمعاش مضمون في الحكومة مثلاً، على الأقل لو حصل له أي

www.starbooks.shop

مكروه لن أبقى أنا بلا شيء. ولكن لا، لقد بلغ به الأمر أن يموّل سباق فرنسا للدراجات، ولا أدري ماذا كان يأمل منه! صرف فيه نقوده القليلة ثم خرج منه بلا مليم واحد! هذا هو الرجل، وهذه هي الحياة التي عشتها.

- أين كنتما تسكنان؟

- في نانر، لأننا لم نكن نستطيع دفع إيجار مسكن في المدينة. هل عرفت كوشيه؟ لم يكن ليبالي بذلك ولم يكن ليخجل منه، ولم يكن قلقاً. كان يزعم أنه وُلد ليجني أموالاً كثيرة وأنه سيجنيها، ثم جاء دور سلاسل الساعات. إنك لا تستطيع أن تتخيل، سلاسل ساعات يبيعها في أسواق عامة يا سيدي! وكانت أخواتي لا يجرؤن على الذهاب إلى سوق نوبي خشية أن يقابلنَه على تلك الحال.

- هل أنت التي طلبت الانفصال؟

أطرقت برأسها بحياء، غير أن ملامحها كانت ما تزال قاسية، واستطردت قائلة: كان السيد مارتان يسكن نفس العمارة التي كنا نسكنها. كان أكثر شباباً منه الآن ويتمتع بمركز محترم في الحكومة، فلم أجد غير حل صحيح ولائق، فكان الانفصال باتفاق متبادل بسبب التنافر في الطباع، وكان على كوشيه أن يدفع لي فقط نفقة من أجل الطفل. ثم انتظرنا، مارتان وأنا، عاماً قبل أن نتزوج.

وهنا بدأت تتململ فوق الكرسي وأصابعها تجذب مقبض حقيبتها الفضي، وقالت: وكما ترى، لم يكن لي حظ على

www.starbooks.shop

الإطلاق. في البداية لم يكن كوشيه يسدد النفقة بانتظام، ومن الصعب بالنسبة لامرأة حساسة أن ترى زوجها الثاني يقوم بالإنفاق على طفل ليس ابنه.

لم يكن ميجريه نائماً، على الرغم من عينيه المغلقتين والغليون المطفأ الذي وضعه بين أسنانه. لقد غدا الأمر أكثر كدراً، فقد اغرورقت عينا المرأة بالدموع وبدأت شفتاها تضطربان بطريقة تثير القلق، وقالت: لم يعرف أحدٌ غيري أنني قاسيت. أشرفت على تعليم روجيه، أردت له أن يحصل على ثقافة محترمة. ولم يشبه أباه، فقد كان عطوفاً حساساً، وعندما بلغ السابعة عشرة وجد له مارتان مكاناً في أحد المصارف كي يتعلم مهنة، ولكنه قابل كوشيه في تلك الأثناء، لا أدري أين.

- هل اعتاد أن يطلب أموالاً من أبيه؟

- لاحظ أن كوشيه كان يرفض لي كل طلب. كان كل شيء من أجلي غالياً للغاية في نظره، فكنت أتولى حياكة أثوابي بنفسي وأحتفظ بالقبعة الواحدة ثلاث سنوات في حين كان هو يصرف أمواله القليلة على سباق فرنسا للدراجات.

- هل كان يعطي روجيه كل ما يطلبه؟

- لقد أفسده، ومن ثم هجرَنا روجيه ليعيش وحده. وما زال يأتيني من آن إلى آخر، ولكنه كان يذهب أيضاً لزيارة والده.

- هل تسكنان في ميدان ألفاج منذ فترة طويلة؟

- منذ ثمان سنوات تقريباً. وعندما عثرنا على الشقة لم نكن

www.starbooks.shop

نعلم أن كوشيه يعمل في الأمصال وأن له مكتباً في العمارة نفسها، وعندما عرفنا أراد مارتان أن ننتقل إلى مسكن آخر. ولماذا نترك بيتنا؟ لو كان لا بد أن يرحل أحد لكان كوشيه أولى بأن يرحل، أليس كذلك؟ كوشيه، وقد أصبح ثرياً بطريقة لا أعرفها، والذي كنت أراه يصل في سيارة يقودها سائق. كان لديه سائق، ورأيت زوجته.

- في بيتها؟

- ترقبتها في الشارع لأتأمل شكلها. أفضّل أن لا أقول شيئاً، لم تكن شيئاً عظيماً على كل حال، على الرغم من المظاهر التي كانت تبديها وعلى الرغم من معطفها الثمين.

تحول الأمر في ذهن ميجريه إلى فكرة مسيطرة، فقد مضت عشرون دقيقة وهو يثبت نظره على نفس الوجه، وجه قلق فقد لونه، ويبدو أنه لم يعبّر في حياته إلا عن ألم وشقاء. وذكّره هذا الوجه بشخص من عائلته، فقد كانت له عمة أضخم من السيدة مارتان، لكنها كانت هي الأخرى دائمة الشكوى، وعندما كانت تزورهم وهو طفل كان يلاحظ أنها ما إن تجلس حتى تخرج منديلاً من حقيبتها.

فقدت السيدة مارتان خيط أفكارها فجأة، فقد كانت مضطربة، وقالت: والآن يجب أن تدرك موقفي طبعاً. لقد تزوج كوشيه مرة أخرى، ولم يَحُلْ دون ذلك أنني كنت زوجته وأنني قاسمته مطلع حياته وأقسى سنوات عمره، وليست الأخرى أكثر من دمية.

www.starbooks.shop

- هل لك مطالب بخصوص الميراث؟

- أنا؟!

صرخت به حانقة وقالت: إنني لا أرغب في ماله على الإطلاق. نحن لسنا أغنياء، ومارتان يعوزه الإقدام ولا يعرف كيف ينجح، ولا يتورع عن تقطيع العشب تحت أقدام زملاء له أدنى منه ذكاء، ولكنني أفضّل أن أخدم في المنازل عن أن أرغب في مال كوشيه.

- هل أرسلت زوجك ليخبر روجيه؟

بقي وجهها ثابت القسمات، غير أن اضطراباً ما طرأ على عينيها وقالت: كيف عرفت؟

ثم أضافت فجأة بلهجة حانقة: آمل أن لا يكون ثمة من يراقبنا على الأقل، إذن لطفح الكيل، وفي هذه الحال لن أتردد في أن ألجأ إلى السلطات.

- هدئي من روعك يا سيدتي، إن المصادفة البحتة هي التي جعلتني أقابل السيد مارتان صباح اليوم.

ولكنها ظلت متشككة ترمقه بقسوة، وقالت: سوف أندم على أنني حضرت. لقد أردت أن أتبع الطريق الصحيح، وبدلاً من أن تشكرني...

- أؤكد لك أنني أشكر لك هذه الزيارة شكراً جزيلاً.

لم يغير شكره هذا من شعورها، فهذا الرجل الضخم

www.starbooks.shop

العريض المنكبين الذي يرمقها بعينين خاليتين من الأفكار كان يفزعها، ثم نطقت بصوت حاد قائلة: على كل من الأفضل أن يكون المتكلم أنا لا الحارسة، عندئذ كنت ستعلم...

- أنك أول زوجة للسيد كوشيه؟

- هل قابلت الأخرى؟

بذل ميجريه بعض الجهد لكيلا يبتسم، وقال: ليس بعد.

- سوف تذرف دموع التماسيح، ولكنها ستكون في أسعد حال، فبالملايين التي جمعها كوشيه...

انهارت فجأة بالبكاء، الأمر الذي غيّر وجهها ونزع عنها ما كان يظهرها صلبة متماسكة. ثم استطردت قائلة: إنها لم تعرفه عندما كان يكافح، عندما كان بحاجة إلى امرأة تساعده وتشجعه.

ثم نهضت وهي تنظر حولها كي تتأكد أنها لم تنسَ شيئاً. وارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة تحت الدموع وقالت: ولكن هذا كله ليس له حساب! على كل لقد أديت واجبي، ولا أدري ماذا تظن بي ولكن...

- أؤكد لك أن...

كان حائراً في مواصلة حديثه لو لم تكمل هي بنفسها قائلة: يستوي هذا بالنسبة لي. إن عندي ضميري الذي يحركني، لا أحد يستطيع أن يذكره كما...

بدت وكأنها ينقصها شيء ما، لكنها لم تستطع أن تعرف ما

www.starbooks.shop

هو. وألقت نظرة أخرى، ثم حركت إحدى يديها وكأنها تعجب إذ وجدتها فارغة. وكان ميجريه واقفاً، فأوصلها إلى الباب وقال: أشكر لك قدومك.

- لقد قمت بما اعتقدت أن من واجبي القيام به.

وبلغت الدهليز، حيث كان بعض المفتشين يثرثرون وهم يضحكون، فمرت بالقرب منهم بأنفة دون أن تدير رأسها.

-٢-

بعد أن أغلق الباب سار ميجريه ناحية النافذة التي فتحها على سعتها على الرغم من البرد. كان مرهقاً وكأنه انتهى من تحقيق عسير مع أحد المجرمين. لقد انتابه بشكل خاص ذلك الانحراف المزاجي الغامض الذي يشعر به المرء عندما تضطره الظروف إلى الاطلاع على بعض مظاهر من الحياة يفضل عادة أن يكون جاهلاً بها. لم يكن أمراً محزناً، لم يكن أمراً منغصاً، وهي لم تقُل شيئاً غريباً، لم تكشف له عن أي معلومات جديدة، ولكن لم يمنع هذا أن تفضي تلك المقابلة إلى شبه إحساس بالأسى.

ثم ضغط الجرس فظهر جان، فأرسله ليحضر البيانات التي كان قد طلبها عن كل مَن يتصلون بالمأساة، وعندما قرأها لم يجد فيها ما يثير الاهتمام. وقبل أن يغادر جان الغرفة وجّه نظر ميجريه إلى شيء ما قائلاً: لقد نسيت تلك السيدة مظلتها.

- أعرف.

www.starbooks.shop

- تعرف؟

- نعم، وأنا بحاجة إليها.

ثم نهض وهو يتنهد فأغلق النافذة واستقر في مقعده مولياً ظهره ناحية اللهب في الوضع الذي اعتاده عندما يكون بحاجة إلى التفكير. وبعد ذلك بساعة كان في استطاعته أن يلخص ذهنياً جميع المذكرات التي وصلته من الأقسام المختلفة والتي كانت تنتشر في مكتبه. أولاً تقرير الطبيب الشرعي الذي أجرى عملية التشريح، والذي جاء فيه أن الرصاصة أطلقت من على بعد ثلاثة أمتار تقريباً وأن الوفاة كانت فورية.

أما مصوّرو تحقيق الشخصية الذين كانوا يقومون بأعمالهم في أعلى دار المحكمة فقد صرحوا بأنهم لم يكشفوا عن أية بصمة تثير الانتباه. وأخيراً أكد مصرف ليون أن كوشيه قد مرّ بالمركز الرئيسي في الثالثة والنصف تقريباً وأخذ أوراقاً مالية جديدة قيمتها ثلاثمئة ألف فرنك كما هي عادته في الليلة الأخيرة من كل شهر.

إذن فقد صار من المؤكد تقريباً أن كوشيه وضع لدى وصوله إلى مكتبه ثلاثمئة ألف فرنك في الخزنة، إلى جانب الستة آلاف التي توجد فيها قبلاً. ولما كانت لا تزال لديه بعض الأعمال فإنه لم يُعِد إغلاق الخزنة التي أسند ظهره إليها.

وكان الضوء في المعمل يشير إلى أنه غادر المكتب في وقت معين، إما ليتفقد الأماكن الأخرى وإما (وهذا أكثر الأمرين احتمالاً) ليذهب إلى غرفة الأحواض. فهل كانت الأموال ما تزال في الخزنة عندما عاد إلى مكتبه؟

www.starbooks.shop

إن العقل يجيب بالنفي لأنه في هذه الحالة كان لا بدّ للقاتل أن ينحّي الجثة جانباً ليفتح الباب الثقيل ويستولي على الأوراق المالية. كان هذا هو الجانب الفني في الموضوع، فهل هو قاتل لص في الوقت نفسه، أم قاتل ولص تصرّفا كل على حدة؟

أمضى ميجريه عشر دقائق عند قاضي التحقيق ليبلّغه بالنتائج التي توصل إليها، ولما كان النهار قد انتصف قبل قليل فقد عاد إلى بيته وهو في حالة انحراف مزاجي.

عندما وصل إلى البيت سألته زوجته (وكانت قد قرأت الجريدة): هل أنت الذي تقوم ببحث قضية ميدان ألفاج؟

- نعم، إنه أنا.

وبطريقة خاصة جلس ميجريه وراح ينظر إلى زوجته بحنان فائض مع قدر ضئيل من القلق في نفس الوقت.

كانت السيدة مارتان ما تزال مسيطرة على خياله بوجهها المتكدر وثيابها السوداء وعينيها المتألمتين وتلك الدموع التي كانت تنفجر فجأة ثم تختفي وكأنها قد اتقدت بلهب داخلي لتعاود الظهور بعد ذلك. السيدة كوشيه التي تملك معاطف الفراء والسيدة مارتان التي لا تملك منها شيئاً. كوشيه الذي يصرف الأموال على سباق فرنسا للدراجات فيما زوجته الأولى تحتفظ بالقبعة نفسها لثلاثة أعوام.

- يظهر عليك عدم الارتياح وتبدو معتلاً، بل إن من يراك يحسبك مصاباً بالزكام. وما هذه المظلة التي أتيت بها؟ إنها بشعة!

www.starbooks.shop

نظر ميجريه إلى مظلة السيدة مارتان، ومرة أخرى تخيّل ظلالها وراء النافذة.

-٣-

كان المرء يشعر بأن شيئاً غير عادي يجري في العمارة. ما هذه الجلبة التي تجري في متجر أكاليل الموتى؟ كأن المستأجرين يساهمون جميعاً من أجل تقديم إكليل! وعلى أي حال فقد كانت العمارة شديدة الكآبة في ذلك اليوم.

ولما كانت الساعة قد بلغت الرابعة وكان الظلام قد بدأ يلف المكان فقد كان المصباح الضئيل الذي يبعث على السخرية قد أشعل في الدهليز، وفي الجهة المقابلة كان حارس حديقة الميدان يوصد أبوابها، وراحة خادمة آل سان مارك في الطابق الأول تسدل الستائر ببطء وهي تراقب الطريق.

عندما طرق ميجريه باب العمارة وجد حارستها السيدة بورسييه منهمكة بحكاية تفاصيل الأحداث لساعي البريد. وعندما تأملها شعر بعلاقة غامضة تربطها بالسيدة مارتان، فهما الاثنتان كانتا في عداد البائسات، كل الفرق أن الحارسة كانت تتسم بإذعان شبه بهيمي لمصيرها.

- صباح الخير يا سيدي المفتش، كنت في انتظارك هذا الصباح. يا لها من قصة! لقد رأيت أن أحثّ سكان العمارة على المساهمة في شراء إكليل. هل عرفت متى تقام الجنازة؟ وبالمناسبة، السيدة سان مارك حالتها كما تعلم، فأرجوك أن لا

www.starbooks.shop

تخبرها بشيء. لقد قابلتُ السيد سان مارك صباح اليوم وهو يشفق عليها من الانفعالات في حالتها هذه.

سألها ميجريه: أين شقة السيدة مارتان؟

- في الطابق الثاني، الباب الثالث إلى اليسار.

راقب ميجريه النافذة التي كان ينبعث منها الضوء، ولكنه لم ير أي خيال من وراء الستارة. أما من ناحية المعامل فكانت تصل أصوات قعقعة الآلات الكاتبة، ثم وصل أحد الموزعين وسأل الحارسة: أين مكتب أمصال الدكتور ريفيير؟

- في أقصى الفناء، الباب الأيمن.

تركها ميجريه وارتقى الدرج وهو يحمل تحت إبطه مظلة السيدة مارتان. ولاحظ وهو يصل إلى الطابق الأول أن العمارة خضعت للصيانة والتجديد، فقد أعيد طلاء الجدران وأصلح الدرج، وعندما تجاوز ذلك الطابق وانتقل إلى الطابق الثاني وجد عالماً آخر. كانت الجدران قذرة والدرجات مشوّهة، وكانت الأبواب مطلية بلون رمادي رديء، وكان المرء يجد على بعضها بطاقات صغيرة بأسماء الساكنين وعلى بعضها الآخر نقشت الأسماء في لوحات نحاسية.

ثم وصل إلى باب عليه بطاقة رخيصة كتب فيها: "السيد إدغار مارتان وحرمه"، وإلى جوراها شريط مضفور ثلاثي اللون جذبه ميجريه فرنّ في الشقة جرس خافت، ثم سُمعت خطوات عجلى وجاء صوت يسأل: من هناك؟

www.starbooks.shop

- أنا أحمل إليك مظلتك.

فُتح الباب، وكان المدخل صغيراً لا تتجاوز مساحته متراً مربعاً، وعلى أحد جدرانه مشجب عُلّق عليه المعطف المطري، وفي المواجهة باب مفتوح لحجرة تستعمل للاستقبال والطعام في نفس الوقت وفيها مذياع كبير فوق صندوق.

- أعتذر لإزعاجك. لقد نسيتِ هذه المظلة في مكتبي.

- عجيب! وأنا التي اعتقدت أنني نسيتها في الحافلة! كنت أخبر مارتان عنها للتو.

لم يبتسم ميجريه، كان معتاداً على هذا الصنف من النساء اللائي يُشرنَ إلى أزواجهنّ بألقابهم.

كان مارتان موجوداً، وكان يرتدي سروالاً مخططاً يلبس فوقه سترة منزلية بنّية. قال: تفضل أرجوك.

- لا أحب أن أزعجكما.

- ليس ثمة ما يزعج الذين ليس لديهم شيء يُخفونه.

قد تكون الرائحة هي السمة الأساسية التي تميز شقة عن أخرى. كانت رائحة هذه الشقة تطغى عليها روائح شمع الأرضية والمطبخ والثياب القديمة، وفي أحد الأقفاص يقفز طائر كناريا ويقذف أحياناً بقطرة ماء إلى الخارج.

- أحضر الكرسي لسيادة المفتش.

الكرسي! لم يكن في الغرفة سوى كرسي واحد، مقعد من

www.starbooks.shop

طراز فولتير يكسوه جلد بلغ من القتامة بحيث يبدو كأنه أسود اللون.

بدت السيدة مارتان مختلفة عما كانت عليه في الصباح، ربما بسبب العتمة. لا بدّ أن هؤلاء الناس لا يحبون النور، فالمصابيح الكهربائية الثلاثة كان يحجبها بعناية قماشٌ ملوّن كثيف لا ينفذ منه إلا قدر ضئيل من الأشعة.

تصنّع ميجريه ابتسامة رجل يستقبل زائراً وقال: إنكما تتمتعان بمشهد بديع، فشقتكما تطل على ميدان ألفاج، ذلك الميدان الذي لا مثيل له في باريس.

كان ميجريه وهو يقول ذلك يعرف تماماً أن النوافذ تطل على الفناء الخلفي.

- لا، إن أسطح شقق الواجهة في الطابق الثاني شديدة الانخفاض بسبب طراز البناء القديم، فأنت تعلم أن كل أبنية الميدان تعتبر منطقة تاريخية لا يحق للسكان إجراء أي تغيير فيها. هذا أمر مزعج، فقد انقضت سنوات ونحن نريد أن ننشئ في الشقة حماماً و...

كان ميجريه قد اقترب من النافذة ومدّ يده وراح يزيح الستارة التي كان يشاهد الظلال من ورائها في الليلة السابقة. كان تصرفه جريئاً إلى حد ما لأنه لم يستأذن أصحاب البيت كما يصنع الزائر المهذب.

مقابله كانت مكاتب كوشيه ومعمله. وكان قد لاحظ نوافذ

www.starbooks.shop

من الزجاج المعتم عندما نظر وهو في الفناء، أما الآن وهو ينظر من هذه النافذة فقد لاحظ أن تلك النوافذ لم تكن إلا النوافذ السفلى، أما الأخرى فكانت شفافة صافية يتم تنظيفها عدة مرات في الأسبوع.

وفي نفس المكان الذي قُتل فيه كوشيه كان السيد فيليب يظهر جلياً للعيان وهو يوقّع على خطابات كتبت على الآلة الكاتبة تقدمها له سكرتيرته واحداً واحداً، وكان الناظر يستطيع أن يميز باب الخزنة، أما الباب الذي يصل بين المكتب والمعمل فكان منفرجاً قليلاً.

من خلال نوافذ المعمل رأى نسوة يرتدين معاطف بيضاء مصطفات على طول منضدة كبيرة وقد انهمكن برَصّ الأنابيب الزجاجية. كان لكل منهن عمل، فكانت الأولى تتناول الأنابيب المكشوفة في سلّة، وتقوم الثانية بتسليمها إلى أحد الموظفين وقد أصبحت حزماً تم تغليفها وطباعة المعلومات عليها. قصارى القول أن تلك كانت بضاعة مُعدّة للتسليم للصيدليات.

قال ميجريه وهو ينظر إلى السيدة مارتان: آه، لو أتيح لي أن أنظر من هذه النافذة مساء أمس لكان تحقيقي قد انتهى في بدايته، فمن المستحيل أن لا يرى المرء من هنا كل ما يجري في مكتب كوشيه.

لم يكن ممكناً اكتشاف مقصده في نبرة صوته أو في هيئته وهو يتكلم باسترخاء، ومضى قائلاً: لو نظر المرء من هذه النافذة وقت ارتكاب الجريمة لشاهدها بتفاصيلها الكاملة. ماذا أقول؟

www.starbooks.shop

إن المرء مستعيناً بنظارة مقربة يستطيع أن يرى شفاه المتحدثين واضحة لدرجة أنه يستطيع فهم المحادثة التي دارت بينهما.

لم تدرِ السيدة مارتان ماذا يقصد، فاتخذت موقفاً متحفظاً وارتسمت على شفتيها الشاحبتين ابتسامة جامدة.

- ومع ذلك فيا لهول ذلك الانفعال الذي كنت ستتعرضين له حين تكونين في نافذتك هادئة ساكنة وفجأة تشاهدين شخصاً يهدد زوجك القديم! إنني أتخيل كوشيه بمفرده تماماً، غارقاً في حساباته، ثم ينهض ويتوجه إلى صالة الأحواض، وعند عودته كان شخص ما قد فتح الخزنة، ولم يكن لديه وقت للفرار... ومع ذلك فثمة أمر غريب في هذه الحالة، فقد جلس كوشيه مرة ثانية! هل كان يعرف سارقه فتحدّث معه ووجه إليه اللوم وطلب إليه أن يعيد المال؟

قالت السيدة مارتان: ولكن ما كان يمكن أن أشاهد شيئاً إلا لو فتحت النافذة ووقفت أنظر.

- ربما استطاع آخرون إلقاء نفس النظرة من بعض النوافذ الأخرى في نفس الطابق. مَن يسكن إلى يمينكم؟

- فتاتان وأمهما، أولئك اللائي يشغّلنَ المذياع كل مساء.

في تلك اللحظة دوّت صرخة سبق أن سمعها ميجريه، فبقي صامتاً لحظة، ثم دمدم قائلاً: المجنونة، أليس كذلك؟

أشارت السيدة مارتان بالصمت وهي تتوجه بخطى خفيفة إلى الباب، ثم فتحته فجأة، فلمحا في ضوء الممر الخافت شبح

www.starbooks.shop

امرأة يبتعد مسرعاً.

دمدمت السيدة مارتان بصوت مرتفع تستطيع المرأة الأخرى سماعه: العجوز الكريهة!

وعندما عادت وهي تتميز من الغيظ راحت تشرح الأمر للمفتش قائلة: إنها ماتيلدا العجوز، طاهية قديمة. هل رأيتها؟ يظنها المرء ضفدعاً ضخماً! إنها تسكن في الشقة المجاورة مع أختها المجنونة، وهما على درجة واحدة من الهرم والقبح، ولم تغادر المجنونة حجرتها مرة واحدة منذ سكنّا في هذه الشقة.

- ولماذا تصرخ بهذه الطريقة؟

- هذه النوبة تتملكها عندما يتركونها وحيدة في الظلام، فهي تخاف وتصرخ مثل الأطفال. وقد عرفت أسلوبهما، فمن الصباح إلى المساء تظل ماتيلدا العجوز تحوم في الممرات، ونحن دائماً على ثقة أننا سنجدها قابعة خلف أحد الأبواب، وعندما نفاجئها وهي بهذا الوضع لا تكاد تشعر بأي حرج بل تبتعد هادئة رابطة الجأش، لدرجة أن المرء لا يحس أنه في بيته ويكون عليه أن يخفض صوته إذا أراد أن يناقش شؤون الأسرة. لقد فاجأتها لتوّي متلبسة، أليس كذلك؟ حسناً، أراهن أنها عادت.

وافقها ميجريه قائلاً: إنه وضع غير لطيف. ولكن ماذا عن مالك العمارة؟ ألا يتدخل؟

- لقد حاول كثيراً أن يطردهما، ولكن القوانين تحول دون ذلك للأسف، دون مراعاة أن مما ينافي الصحة ومما تمجه

www.starbooks.shop

النفوس أن تعيش هاتان العجوزتان في حجرة صغيرة. أراهن أنهما لا تغتسلان على الإطلاق!

وضع ميجريه قبعته على رأسه وهو يقول: أرجو أن تغفرا لي أنني أزعجتكما، لقد حان وقت الانصراف.

منذ تلك اللحظة صارت في ذهن ميجريه صورة واضحة عن المسكن، ابتداء بأغطية الأثاث حتى التقاويم التي تزين الجدران.

- لا تحدث ضوضاء، ستفاجئ العجوز.

ولم تتحقق النبوءة تماماً، فلم تكن العجوز في الممر، ولكنها كانت خلف بابها المنفرج كعنكبوت ضخم يتربص، ولا بدّ أنها ارتبكت عندما لمحت المفتش يوجه إليها تحية رقيقة عند عبوره.

* * *

www.starbooks.shop

الفصل الخامس

-١-

في وقت لاحق كان ميجريه جالساً في مطعم سيليكيت، وعندما اقترب منه النادل عرض عليه صورة روجيه كوشيه الذي كان قد أخذها في الصباح من غرفته في فندق شارع بيغال، وسأله: هل تعرف هذا الشاب؟

فدُهش النادل وقال: غريب!

- ما الغريب؟

- لقد انصرف منذ أقل من ربع ساعة. كان جالساً إلى تلك الطاولة، وما كان ليجذب انتباهي لولا أنه بدلاً من أن يحدد لي نوع الطلب الذي كان يريده قال: نفس القهوة التي قدمتها لي بالأمس. غير أنني لم أذكر أنني رأيته من قبل على الإطلاق، فقلت له: هل تسمح فتذكرني بها؟ فأجابني قائلاً: قهوة ثقيلة بسكّر مضاعف. فعجبت كثيراً لأنني واثق أنني لم أقدم تلك القهوة بالأمس. ولبث بضع دقائق ثم انصرف، ومن الغريب أنك عرضت عليّ صورته الآن.

www.starbooks.shop

لم يجد ميجريه في الأمر أي غرابة، فقد أراد روجيه أن يقيم الدليل على أنه كان في السيليكيت عشية اليوم السابق كما صرح بذلك لميجريه، فلجأ في سبيل ذلك إلى حيلة ماهرة، ولم يخطئ إلا حين اختار نوع قهوة قليل الشيوع.

مرت دقائق، ثم دخلت نين عابسة وجلست إلى أقرب طاولة بجوار الباب، وما إن لمحت المفتش حتى نهضت، وترددت ثم تقدمت نحوه وسألته قائلة: هل تريد أن تتحدث إليّ؟

- ليس كذلك تماماً. ولكن لا بأس في أن أوجه إليك سؤالاً: أنت تحضرين هنا كل مساء، أليس كذلك؟

- كان ريمون يحدد هذا المكان دائماً للقائنا.

- هل تعتادين الجلوس في مكان محدد؟

- هناك، حيث جلست عند دخولي.

- وهل كنت تجلسين هناك بالأمس؟

- نعم، لماذا؟

- هل تذكرين أنك رأيت صاحب هذه الصورة؟

تأملت صورة روجيه، ثم دمدمت قائلة: إنه جاري في الفندق.

- أجل، ابن كوشيه؟

حملقت بدهشة وقد اضطربت لهذا التوافق، وساءلت نفسها عما يخبئه من أمور. ثم قالت: لقد زارني صباح اليوم بعد

www.starbooks.shop

انصرافك بقليل، كنت عائدة من مسرح الطاحونة.

- ماذا كان يريد؟

- طلب مني قرصين من الأسبرين من أجل سيلين التي كانت مريضة.

- وفي المسرح، هل كلفوك بعمل؟

- عليّ أن أكون هناك هذا المساء. لقد أصيبت إحدى فتيات الاستعراض، وإذا لم تتحسن حالها فقد أحلّ محلها، وربما تعاقدوا معي تعاقداً دائماً.

ثم خفضت صوتها كي تكمل الحديث وقالت: إن المئة فرنك معي، هات يدك.

كانت تلك الحركة بمثابة كشّاف أظهر حقيقة نفسيتها، فهي لا تريد أن تناول ميجريه مئة فرنك علانية لأنها تخشى أن تسبب له حرجاً، فقبضت على الورقة براحة يدها وقد طوتها طياً دقيقاً ثم ناولته إياها وهي تقول: أشكرك، فقد كنت طيباً معي.

كان المرء يشعر بفتورها، فقد كانت تنظر حولها دون أن تعير انتباهاً للداخلين والخارجين، ومع ذلك فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة وقالت: إن المدير ينظر إلينا، ولعله يسائل نفسه عن سبب وجودي معك.

- هل ترغبين بأي شيء؟

أجابت قائلة بصوت خافت: شكراً. لو احتجت إليّ فسوف

www.starbooks.shop

تجدني في المسرح. اسمي هناك إليان، وأنت تعرف مدخل الفنانين، من شارع فونتين.

-٢-

لم يكن في الأمر مشقة كبيرة، فقد ضغط ميجريه على جرس باب شقة شارع هوسمان قبل موعد العشاء بدقائق، وكانت رائحة زهر الأقحوان الكئيبة تنتشر في الجو ابتداء من المدخل، وجاءت الخادمة لتفتح الباب وهي تسير على أطراف أصابعها.

ظنت أن المفتش يريد ببساطة أن يقدم تعازيه، فقادته دون أن تقول كلمة إلى حجرة الميت التي يجللها السواد، وعند المدخل وجد عدداً من بطاقات الزيارة فوق طبق فضي كبير.

كان جسد الميت قد أودع الصندوق الذي كان يختفي تحت الأزهار، وفي أحد الأركان يرى الناظر رجلاً وجيهاً في الحداد، وقد أومأ لميجريه برأسه إيماءة خفيفة. وفي مواجهته وقفت امرأة في نحو الخمسين من عمرها، ذات ملامح غليظة ترتدي ثياباً ريفية الطراز، وكانت تجثو على ركبتيها.

اقترب المفتش من الرجل وسأله: هل أستطيع أن أقابل السيدة كوشيه؟

- سأسأل أختي إن كان باستطاعتها مقابلة سيادتك.

- أنا ميجريه، مفتش المباحث المكلف بالتحقيق.

لبثت المرأة مكانها، ومضت عدة دقائق عاد الرجل بعدها

www.starbooks.shop

فقاد ضيفه إلى داخل الشقة. وبخلاف رائحة الزهور التي كانت تسود المكان كله كانت الحجرات محتفظة بطابعها المعتاد. كانت شقة جميلة من طراز أواخر القرن الماضي، شأن غالبية شقق شارع هوسمان الراقي، حيث الحجرات واسعة والأسقف والأبواب مزينة بإفراط والأثاث من الطراز الكلاسيكي. وفي حجرة الاستقبال عُلّقت ثريا أثرية من البلور.

كانت السيدة كوشيه هناك وحولها ثلاثة أشخاص قامت بتقديمهم، أولاً الرجل الذي يرتدي ملابس الحداد قدمته قائلة: أخي، هنري دورموي، وهو يعمل في المحاماة. ثم قدمت رجلاً متقدماً في السن قائلة: الكولونيل دورموي، عمّي. وأخيراً قدمت امرأة فضية الشعر قائلة: وهذه أمي.

كانوا جميعاً وقد ارتدوا ملابس الحداد غاية في الوجاهة، ولم يكن الشاي قد رُفع من فوق المائدة، وكانت توجد بقايا كعك وحلوى.

قالت السيدة كوشيه: تفضل بالجلوس.

- لديّ سؤال لو سمحت، هذه السيدة التي شاهدتها في حجرة الميت...

قالت السيدة كوشية: إنها أخت زوجي، وقد وصلت صباح اليوم من سانت آمون.

لم يبتسم ميجريه، ولكنه أدرك السبب. كان يشعر تماماً أنهم لا يحبون لأحد أن يشهد عائلة كوشيه لدى وصولها في ثياب

www.starbooks.shop

ريفية. كان هناك أقارب الزوج، آل كوشيه، وأقارب الزوجة، آل دورموي. آل دورموي يتّسمون بالأناقة والثراء وكلهم يرتدون فعلاً ملابس الحداد، أما آل كوشيه فلم يصل منهم إلا هذه المرأة التي تبدو في ملابسها سمة الريف البسيط.

- هل أستطيع أن أقول لك كلمتين على انفراد يا سيدتي؟

استأذنت من أفراد عائلتها الذين كانوا يريدون مغادرة المكان، وقالت لهم: ابقوا أرجوكم، سأعود عمّا قريب.

لقد بكت، لا شكّ في ذلك، ثم غطت وجهها بالمساحيق، وكان باستطاعة الناظر إليها أن يدرك بصعوبة أن جفنيها مثخنان قليلاً، وكان صوتها خافتاً بفعل إعياء حقيقي.

- ألم تتلقي اليوم زيارة غير منتظرة؟

رفعت رأسها على مضض وقالت: كيف عرفت؟ بالفعل، عند حلول العصر جاءني ابن زوجي.

- أكنت تعرفينه قبلاً؟

- معرفة طفيفة، كان يزور زوجي في مكتبه، كما أننا صادفناه مرة في المسرح فقام ريمون بتقديم أحدنا للآخر.

- وفيمَ كانت زيارته؟

بدا أنها تشعر بالضيق، فقد أشاحت بوجهها وقالت: أراد أن يعرف لو أننا عثرنا على وصية، وقد طلب مني أيضاً أن أدله على محامي العائلة ليتحدث إليه بشأن الإجراءات.

www.starbooks.shop

تنهدت وحاولت أن تجد عذراً لهذه النذالة، فقالت: هذا من حقه. أعتقد أن نصف الثروة تؤول إليه، وأنا لا أنوي أن أحرمه هذا الحق.

- هل تسمحين لي بتوجيه بعض الأسئلة الفضولية؟ عندما تزوجت كوشيه هل كان غنياً؟

- نعم. لم يكن ثرياً كما هو اليوم، ولكن أعماله كانت قد بدأت تروج.

- أكان زواج حب؟

ظهرت على شفتيها ابتسامة كئيبة وقالت: لقد تقابلنا في دينارد، وبعد ثلاثة أسابيع سألني إن كنت أوافق على أن أصبح زوجة له، وسأل أهلي عنه.

- وهل كنت سعيدة؟

نظر في عينيها، وسرعان ما شعر أنه في غنى عن إجابتها، فاكتفى بأن سألها قائلاً: كان هناك فارق في السن. باختصار كان كوشيه مشغولاً بأعماله ولم يكن بينكما حب كبير، أهذا صحيح؟ كنت تديرين منزله وكانت لك حياتك وله حياته.

- لم أوجه إليه اللوم على الإطلاق. لقد كان بحاجة إلى حياة كثيرة الحركة، ولم أكن لأحب أن أقف في طريقه. لكني أعتقد أنه كان يحبني فعلاً.

كانت على قدر غير قليل من الجمال، ولكن دون تألق زائد. ملامح دقيقة إلى حد ما وقوام رقيق وأناقة معتدلة.

www.starbooks.shop

- هل كان زوجك يحدثك كثيراً عن زوجته الأولى؟

عندئذ جمدت حدقتاها وحاولت أن تخفي غضبها، ولكنها أدركت أن الأمر لا ينطلي على ميجريه، فبدأت تقول: ليس عليّ أنا أن...

- آسف، فنظراً لظروف الجريمة لا يمكننا التلطف بالحديث.

- هل ترتاب في أحد؟

- أنا لا أرتاب بأحد، بل أحاول فقط تكوين صورة عن حياة زوجك والمحيطين به والأعمال والحركات التي قام بها في ليلته الأخيرة. هل كنت تعلمين أن تلك السيدة تسكن في نفس العمارة التي توجد فيها مكاتب كوشيه؟

- نعم، لقد أخبرني بذلك.

- وكيف كان يتحدث عنها؟

- كان يحقد عليها، ثم خجل لهذا الإحساس، وكان يزعم أنها في الواقع شقية تستحق الرثاء.

- لماذا هي شقيّة؟

- لأنه لم يكن يشبعها شيء، ثم...

- ثم ماذا؟

- أنت تدرك ما أريد أن أقوله. إنها نفعية إلى حد كبير، وباختصار فقد هجرت ريمون لأنه لم يكن يكسب مالاً كافياً،

www.starbooks.shop

وبعد ذلك وجدته غنياً ووجدت نفسها زوجة لموظف بسيط.

- ألم تحاول أن...

- لا أعتقد أنها طلبت منه مالاً على الإطلاق. صحيح أن زوجي ما كان ليطلعني على ذلك لو حصل، كل ما أعرفه أن مقابلته لها في ميدان ألفاج كانت تسبب له ألماً، وأعتقد أنها كانت تخطط لكي يجدها في طريقه. لم تكن تتحدث إليه، ولكنها كانت تنظر إليه بازدراء.

لم يستطع المفتش أن يكتم ابتسامة وهو يتصور اللقاءات العفوية التي كانت تتم في فناء العمارة. كوشيه يترجّل من السيارة متفائلاً مبتسماً فيقابل السيدة مارتان المتعاظمة بقفازها الأسود ومعطفها وحقيبة يدها ووجهها الممل.

- أهذا كل ما لديك من معلومات؟

- لو استطاع لغيّر مكان عمله، ولكن من الصعب أن يعثر المرء على معامل في باريس.

- بالطبع. هل تعرفين أعداء لزوجك؟

- لا، لقد كان يتمتع بحب الجميع. كان طيباً جداً، طيباً لدرجة تثير السخرية. لم يكن ينفق ما يجمع من أموال، بل كان يبعثرها! وعندما كنا نلومه على ذلك كان يجيب بأنه ظل سنوات يجمع القرش فوق القرش ليستطيع في النهاية أن يقوم بالتبذير.

- وهل كان يزور عائلتك كثيراً؟

www.starbooks.shop

- نادراً، فليست العقلية واحدة ولا الأذواق متفقة، أليس كذلك؟

بالفعل وجد ميجريه صعوبة في تصور كوشيه في حجرة الاستقبال مع المحامي والكولونيل والأم التي تنم حركاتها عن كبرياء. كان هذا أمراً من اليسير إدراكه: شاب قوي سوقي يخرج من لا شيء، يقضي ثلاثين عاماً من حياته سعياً وراء الثروة وهو يعيش حياة فقر وتقتير ثم يصبح غنياً، وعندها يتعرف على مجتمع لم يقبله على الإطلاق، مجتمع عائلة برجوازية. هل اختار هذا الزواج ليبرهن لنفسه أنه صار جزءاً من ذلك المجتمع؟ لكي تكون له حياة كأولئك الذين لم يعرفهم إلا من بعيد؟

لعله تزوج لأنه أعجب بهذه الفتاة العاقلة المؤدبة، لكن يبدو أنه كان بحاجة إلى الانطلاق خارج البيت ورؤية أناس آخرين والتحدث إليهم دون تحفظ، لعله كان يفتقر إلى العاطفة التي لم توفرها له هذه الزوجة الرزينة.

سألها ميجريه: هل حددتم موعد الجنازة؟

- لقد تكفل أخي بهذا الأمر، ستقام يوم الخميس في سان فيليب دي رول.

في تلك اللحظة وصلت أصواتٌ من حجرة الطعام المجاورة، فكان ذلك بالطبع إيذاناً بموعد تقديم طعام العشاء، فقال ميجريه: لم يبقَ أمامي إلا أن أقدم لك الشكر وأن أستأذنك بالانصراف مكرراً أسفي.

www.starbooks.shop

بينما كان يمشي في شارع هوسمان على قدميه فوجئ بنفسه يدمدم قائلاً وهو يحشو غليونه: كوشيه، أيها الجليل!

وجد نفسه يقول ذلك كما لو كان كوشيه صديقاً قديماً له. وقد أدهشه الأمر لأنه لم يعرفه إلا ميتاً، ومع ذلك فقد بدا له أنه يعرفه معرفة تامة من جميع النواحي. أمن الممكن أن يكون ذلك بسبب النساء الثلاث؟ زوجته الأولى ابنة الحلواني التي يقلقها أن يبقى زوجها أبداً بلا مهنة محترمة، ثم زوجته الثانية وما حظي به كوشيه بذلك الزواج من إشباع لكبريائه، ثم نين التي وجد عندها العاطفة وانطلق معها على سجيّته دون تكلف، والابن الذي كان يأتيه طالباً المال، والسيدة مارتان التي كانت تتخذ التدابير لتقابله في فناء العمارة ربما أملاً منها في مضايقته عن طريق تأنيب الضمير.

ما أعجبها من نهاية! كان وحيداً تماماً في المكتب الذي يأتيه لِماماً، متكئاً إلى الخزنة ويداه فوق المنضدة. ولم يلمح أحد شيئاً. والحارسة التي كانت تمر بالفناء بقيت تراه في نفس الوضع ونفس المكان من وراء الزجاج المظلل، والمجنونة التي راحت تصرخ بشدة، وبمعنى آخر ماتيلدا العجوز التي كانت تسترق السمع خلف الأبواب، والسيد مارتان في معطفه المطري ينزل وينقب عن قفازه قرب أوعية القمامة...

ثمة أمر مؤكد، هو أن شخصاً يملك الآن ثلاثمئة وستين ألف فرنك المسروقة، وأن شخصاً قام بالقتل.

www.starbooks.shop

”الرجال جميعاً أنانيون“. هذه الجملة قالتها السيدة مارتان بمرارة ووجها يقطر ألماً، فهل هي التي معها ثلاثمئة وستون ألف فرنك؟ أهي التي تملك الآن ذلك المال الكثير، حزمة ضخمة من الأوراق المالية ستمنحها سنوات من الراحة غير مبالية بالغد ولا بالمعاش الذي يؤول إليها بموت مارتان؟ أم هو روجيه الذي ليس له عمل ويحتاج إلى المال؟ أهي نين أم السيدة كوشيه؟

وعلى كل فيوجد مكان يمكن أن يشاهَد منه كل شيء، مسكن آل مارتان، وتوجد امرأة تحوم في البيت وتلصق أذنها بالأبواب. وحدّث ميجريه نفسه قائلاً: يجب أن أزور ماتيلدا العجوز.

ولكنه عندما بلغ عمارة ميدان ألفاج صباح اليوم التالي أوقفته الحارسة التي كانت تفرز بريد العمارة قائلة: هل أنت صاعد لتقابل آل مارتان؟ لا أدري إن كنت تحسن الصنع، فقد كانت السيدة مارتان الليلة تقاسي من مرض فظيع واضطررنا أن نلجأ إلى الطبيب. إن زوجها كالمجنون.

كان الموظفون يعبرون الفناء في طريقهم إلى أعمالهم في المعامل والمكاتب، وكانت الخادمة تنفض البساط في نافذة بالطابق الأول، وثمة صراخ طفل وليد وأغنية شعبية ترددها مرضعة برتابة.

* * *

www.starbooks.shop

الفصل السادس

-١-

- لقد نامت. تفضل بالدخول.

غاب السيد مارتان راضياً، راضياً أن يدع مسكنه الذي تسوده الفوضى على مرأى من الغريب، راضياً أن يبدو هو نفسه بلا أناقة أو ترتيب وقد تدلى شارباه الضاربان إلى اللون الرمادي، مما يدل على أنه تعود صبغهما بالسواد.

يبدو أنه بقي الليل كله ساهراً، فقد بدا منهكاً لا يصدر عنه رد فعل على الإطلاق، وعلى أطراف أصابعه مضى ليوصد الباب الذي يوصل إلى حجرة النوم ويرى الناظر عبره طرف السرير.

- هل أخبرتك الحارسة؟

كان يهمس ونظراته القلقة متجهة نحو الباب، وفي نفس الوقت قام ليطفئ موقد الغاز الذي كان يسخن فوقه دلّة القهوة، وقال لميجريه: فنجان صغير؟

- شكراً، لن أزعجكم كثيراً، لقد آثرت المجيء للسؤال

www.starbooks.shop

عن السيدة مارتان.

- أنت لطيف جداً.

قالها مارتان باقتناع، وفي الحقيقة فهو لم يشعر بأي نية أخرى للمفتش، فقد كان من الاضطراب حتى إنه فقد كل حاسة للنقد. وعلى أي حال فالمرء يتساءل إن كان يتمتع بهذه الحاسة قبلاً؟

- ما أفظعها تلك الأزمات! هل تسمح لي بتناول قهوتي في حضرتك؟

- هل تنتاب هذه الأزمات السيدة مارتان كثيراً؟

- لا، وخصوصاً هذا النوع العنيف. إنها عصبية جداً، يبدو أنها كانت تنتابها أزمات عصبية كثيرة عندما كانت فتاة صغيرة.

- والآن أيضاً؟

رمقه مارتان بنظرة حزينة، ثم تجرأ فصرّح قائلاً: أنا مضطر إلى مسايرتها، فما إن أعارضها أقل معارضة حتى تقع فريسة لهياج شديد.

كانت هيئته في العادة مدعاة للسخرية، بمعطفه المطري وشاربيه المشبعين بالدهن وقفازه الجلدي، كان صورة كاريكاتيرية لموظف صغير مغرور، أما في تلك اللحظة فقد زال لون شعره وبدت عيناه عليلتين وكان ما يزال مرتدياً بيجامة النوم تحت معطف قديم. بدا رجلاً رضيّ الخلق، وكان الناظر يذهل إذ يدرك أنه يبلغ من العمر خمسين عاماً على الأقل.

www.starbooks.shop

سأله ميجريه قائلاً: هل تعرضَت لما ضايقها مساء أمس؟

- لا، لا.

كان مذعوراً ينظر حوله بفزع، واستطرد ميجريه في أسئلته: ألم تستقبل أحداً؟ ابنها مثلاً؟

- وصلت أنت، ثم تناولنا عشاءنا، ثم...

- ثم ماذا؟

- لا شيء، لا أدري... لقد وقع الأمر من تلقاء نفسه، فهي حساسة إلى حد بعيد، لقد لاقت في حياتها كثيراً من المصائب.

هل كان مقتنعاً فعلاً بما يقول؟ لقد شعر ميجريه أن مارتان يتحدث ليقنع نفسه، فسأله قائلاً: باختصار، أليس لك رأي في هذه الجريمة أنت نفسك؟

سقط الفنجان من يد مارتان على الأرض. ترى أكانت أعصابه منهارة هو أيضاً؟

أجابه قائلاً: ولماذا يكون لي رأي؟ أقسم لك لو كان لي رأي لـ...

- أقصد رأيك الشخصي.

- لا أدري، الأمر فظيع، وقد توافق مع وقت تكثر فيه أعمالنا في المكتب. لم يكن لديّ وقت حتى كي أخبر رئيسي هذا الصباح.

مرر يده النحيلة على جبهته، ثم شرع يلتقط قطع الفنجان

www.starbooks.shop

المهشّم وبحث طويلاً عن خرقة ليجفف الأرضية.

- لو استجابت لي لما بقينا في هذا البيت.

كان خائفاً. كان هذا واضحاً، كان على درجة كبيرة من الخوف. ولكن ما مبعث هذا الخوف؟ وما مصدره يا ترى؟

- أنت رجل شهم، أليس كذلك يا سيد مارتان؟ والرجل النزيه...

- لقد خدمت اثنين وثلاثين عاماً و...

- إذن لو كنت تعرف شيئاً يمكن أن يساعد العدالة في الكشف عن الجاني فمن واجبك أن تخبرني به.

تساءل ميجريه: هل اصطكت أسنانه؟!

- كنت سأقول بالتأكيد... ولكنني لا أعرف شيئاً. أنا نفسي أريد أن أعرف، فليست هذه حياة.

- ما رأيك في ابن زوجتك؟

فنظر مارتان إلى ميجريه بعجب وقال: روجيه؟ إنه...

- شخص فاشل، أجل.

- ولكنه ليس شريراً، أقسم لك. إنها غلطة أبيه كما تقول زوجتي دائماً، فلا يجب أن نعطي الفتيان مثل هذه الأموال الكثيرة. وهي محقة في ذلك، وأنا أعتقد مثلها أن كوشيه لم يكن يصنع ذلك عن طيب قلب ولا عن حب لابنه الذي لم يكن يكترث به،

www.starbooks.shop

بل كان يفعل ذلك ليتخلص منه، ليكون على وفاق مع ضميره.

- ضميره؟!

احمرّ وجه مارتان وازداد ارتباكه، ثم قال بصوت أكثر خفوتاً: لقد أخطأ نحو جولييت، أليس كذلك؟

- جولييت؟

- زوجتي... زوجته الأولى، ماذا فعل من أجلها؟ لا شيء، لقد عاملها معاملة الخادمات، ومع ذلك فهي التي أعانته في الأوقات العصيبة. وبعد ذلك... وبعد ذلك لم يُعطِها شيئاً طبعاً.

- ولكنها كانت قد تزوجت من جديد.

اصطبغ وجه مارتان بلون أرجواني. كان ميجريه ينظر إليه متعجباً مشفقاً لأنه كان يدرك أن هذا الرجل الطيب لا دخل له بهذه القضية المعقدة. إن كل ما يفعله هو ترديد لما يمكن أن يكون قد سمعه من زوجته مئة مرة. كان كوشيه غنياً وكانت هي فقيرة، إذن...

ولكن المفتش استمر بالإصغاء باهتمام، وسأله: ألم تسمع شيئاً؟

لزما الصمت برهة فسمعا نداء خافتاً غير واضح يأتي من الحجرة المجاورة، فقام مارتان وفتح الباب، فسمع السيدة مارتان تسأل قائلة: ماذا تقول له؟

- لكن... إنني...

www.starbooks.shop

- إنه المفتش، أليس كذلك؟ ماذا يريد ثانية؟

لم يرها ميجريه ولكنه سمع صوتها فقط، وكان صوت إنسان راقد بلغ منه الإرهاق مبلغاً بعيداً ولكنه مع ذلك يحتفظ برباطة جأشه.

قال مارتان: لقد جاء المفتش ليطمئن عليك.

- دعه يدخل. انتظر، ناولني منشفة مبللة والمرآة والمشط.

- ستتضايقين ثانية.

- أمسك المرآة معتدلة... لا، ارفعها قليلاً، إنك لا تستطيع أن... ارفع هذه الملابس عن الأرض. آه من الرجال! ما إن تغيب الزوجة حتى يصبح البيت مثل الحظيرة. دعه يدخل الآن.

كانت الحجرة مثل حجرة الطعام، كئيبة قليلة الأثاث مع إفراط في الستائر القديمة والأقمشة البالية والسجاجيد الرخيصة التي زالت عنها ألوانها. ومن عند الباب شعر ميجريه بنظرة السيدة مارتان مصوبة نحوه، هادئة بطريقة عجيبة، وعلى صفحة الوجه المشدود شهد ابتسامة مريضة متملقة.

قالت: لا تُلقِ بالاً، كل شيء في فوضى شنيعة، وذلك بسبب تلك الأزمة.

نظرت أمامها باكتئاب ثم قالت: ولكنني في حال أفضل، فيجب أن أشفى غداً من أجل الجنازة. هل ستقام غداً فعلاً؟

- نعم، ستكون غداً. هل تتعرضين لهذه الأزمات كثيراً؟

www.starbooks.shop

- كانت تنتابني وأنا طفلة، ولكن أختي...

- هل لك أخت؟

- لي أخت كانت تتعرض هي الأخرى للأزمات، وتزوجت، وكان زوجها إنساناً حقيراً، وذات يوم انتهز إحدى تلك الأزمات وطالب بتحويلها إلى مستشفى الأمراض العقلية فماتت بعد أسبوع.

- لا تنفعلي.

قالها مارتان متوسلاً إليها وهو لا يدري أين يجلس ولا أين ينظر، فسأل ميجريه قائلاً: مجنونة؟

فقست ملامح المرأة وقالت بصوت حازم: أي أن زوجها أراد أن يتخلص منها، وبعد مضيّ أقل من ستة أشهر تزوج بأخرى. الرجال جميعاً هم الرجال... ونحن نُخلص لهم ونقتل أنفسنا من أجلهم.

تنهّد الزوج قائلاً: أتوسل إليك...

- أنا لا أعنيك بذلك... مع أنك لست أفضل من الآخرين.

شعر ميجريه فجأة بما يشبه تيارات من الحقد. كان ذلك عابراً وغامضاً، ومع ذلك فقد كان على ثقة أنه لم يخطئ في ظنه.

ثم أردفت تقول: وهذا لا يمنع أنني لو لم أكن موجودة...

أليس في صوتها تهديد؟ كان الرجل يتحرك في الفراغ ولكنه يحافظ على اتزانه، وبدأ يُعدّ جرعات من الدواء يسكبها واحدة

www.starbooks.shop

واحدة في كوب، وقال: لقد قال الطبيب...

- أنا لا أبالي بالطبيب.

- ومع ذلك فيجب أن تلتزمي بتعليماته. خذي، اشربي ببطء، إنه ليس رديئاً.

نظرت إليه ثم نظرت إلى ميجريه، وأخيراً شربت وهي تهز كتفيها مستسلمة، ثم قالت لميجريه: ألم تأتِ حقاً إلا لتسأل عني؟

قالتها بحذر، فقال لها: كنت في طريقي إلى المعامل عندما أخبرتني الحارسة.

- هل اكتشفت شيئاً؟

- ليس بعد.

فأغلقت عينيها لتظهر تعبها، ونظر مارتان إلى ميجريه وهو ينهض، فقال ميجريه: وأخيراً أتمنى لك شفاء عاجلاً. أنت فعلاً في أحسن حال.

تركته ينصرف، ومنع ميجريه مارتان من توصيله إلى الباب قائلاً: ابقَ إلى جوارها أرجوك.

يا للشخص المسكين! لعله كان خائفاً من البقاء إلى جوارها، ولعله كان يتعلق بالمفتش لأنه عندما يوجد ثالث فإن الأمر يكون أخف وطأة.

- سترى أن الأمر ليس خطيراً.

وبينما كان يعبر حجرة الطعام سمع صوت شخص يهرب

www.starbooks.shop

في الممر، فلحق بماتيلدا العجوز في اللحظة التي كانت تعود فيها إلى حجرتها وقال لها: صباح الخير يا سيدتي.

فنظرت إليه بخوف دون أن تجيب ويدها على مقبض الباب. كان ميجريه يتحدث بصوت خافت، إذ كانت عينه على باب السيدة مارتان التي تحب استراق السمع أيضاً، فقد كان من الممكن أن تنهض بدورها فتنصت عند الأبواب.

قال لها: أنا مفتش المباحث المكلف بالتحقيق كما تعلمين.

قالت: ماذا تريد مني؟

- أريد فقط أن أسألك إن كان لديك ما تريدين قوله لي. هل تقيمين في هذه الشقة منذ زمن بعيد؟

فقالت ببرود: منذ أربعين عاماً.

- أنت تعرفين جميع السكان؟

- إنني لا أتحدث إلى أحد.

- اعتقدت أنك ربما كنت قد رأيت شيئاً أو سمعت شيئاً، ففي بعض الأحيان يستطيع دليل بسيط أن يجعل العدالة تسير في الطريق السليم.

كانت ثمة حركة وراء الباب المغلق، غير أن العجوز كانت تتشبث بمقبضه بعناد.

- ألم تشاهدي شيئاً؟

لم تُجِب.

www.starbooks.shop

- ولم تسمعي شيئاً؟

- إنك تحسن صنعاً إذا أمرت المالك بأن يركب لي جهاز الغاز.

- الغاز؟

- كل من في المنزل لديهم غاز، أما أنا فإنه يمنعه عني لأنه ليس من حقه أن يرفع أجر مسكني. إنه يريد أن يطردني ويصنع كل شيء لأغادر، ولكنه سيذهب قبلي إلى القبر، وتستطيع أن تنقل له ذلك عني.

وفُتح الباب قليلاً بقدر يبدو مستحيلاً على المرأة الضخمة أن تمر من خلاله، ثم أغلقت دونها، ولم يعُد يبلغ أذنيه إلا ضوضاء مكتومة في الحجرة.

-٢-

- بطاقتك لو سمحت؟

تناولت الخادمة البطاقة التي قدمها لها ميجريه، ثم غابت في الشقة التي كانت تفيض نوراً بفضل النوافذ العريضة. كانت الحجرات فسيحة، ومن مكان ما في الشقة كان يأتي صوت مكنسة كهربائية، وثمة مربية في رداء أبيض وغطاء رأس أزرق تنتقل من حجرة إلى حجرة وهي ترمق الزائر بنظرة فضول.

جاء صوت قريب يقول: أدخلي المفتش.

www.starbooks.shop

كان السيد سان مارك في مكتبه بملابس البيت، بشعره الفضي الذي عني بتمشيطه، ونهض فأغلق باباً سنحت الفرصة لميجريه أن يلمح عبره سريراً من طراز كلاسيكي ورأس امرأة على وسادة.

- اجلس أرجوك. طبعاً أنت تريد أن تتحدث معي بشأن تلك الحادثة المروعة، مقتل كوشيه.

وعلى الرغم من سنّه فقد كان يوحي بالقوة والصحة، أما الشقة فكان يسودها جو بيت سعيد كل ما فيه منير وبهيج.

قال: لقد تأثرت لهذه المأساة، ولا سيما وقد وقعت في وقت عصيب بالنسبة إليّ.

- أنا أعلم.

سطع في عيني السفير القديم قبس من كبرياء، فقد كان فخوراً بأن يكون له ولد في هذه السن. وقال لميجريه: أرجو أن نتحدث بصوت منخفض لأنني أفضل أن لا تعلم السيدة سان مارك بهذه القصة، ففي مثل حالها قد نندم لو عرفت بالخبر. ولكن ماذا تريد أن تسألني؟ إنني لا أكاد أعرف كوشيه هذا. لقد لمحته مرتين أو ثلاث مرات وأنا أعبر الفناء. يبدو أنه ينتمي إلى مجتمع أتردد عليه من آن إلى آخر في شارع هوسمان، ولكنني أعتقد أنه على شيء من السوقية، أليس كذلك؟

- أي أنه خرج من طبقة الشعب ولاقى الصعوبات ليصبح ما أصبح عليه؟

www.starbooks.shop

- لقد أخبرتني زوجتي بأنه تزوج فتاة من عائلة كريمة كانت صديقة قديمة لها في القسم الداخلي، وهذا أحد الأسباب التي يستحسن أن لا نطلعها على الأمر من أجلها. ماذا ترغب إذن؟

ومن خلال النوافذ العريضة كان الناظر يشرف على ميدان ألفاج بأشعة شمسه الخفيفة البهيجة، وفي حديقة الميدان كان البستانيون يقومون بريّ الأرض الخضراء والعناية بالأزهار.

- مجرد استعلام. الذي أعرفه هو أنك وقد ضقت بانتظار الولادة (وهذا أمر طبيعي) خرجت مراراً تجوب الفناء، فهل حدث أن صادفت شخصاً؟ ألم ترَ شخصاً يتجه ناحية المكاتب التي تقع في أقصى الفناء؟

فكر السيد سان مارك وهو يعبث بقطع الورق ثم قال: لا أعتقد. يجب أن تعلم أن أموراً أخرى كانت تشغل ذهني. ربما استطاعت حارسة العمارة مساعدتك أكثر مني.

- الحارسة لا تعرف شيئاً.

- وأنا كذلك، أو بالأحرى... ولكن لا يمكن أن يكون لهذا أية علاقة بالموضوع.

- قل ما تريد أن تقوله.

- في لحظة ما سمعت ضوضاء تأتي من ناحية أوعية القمامة. كنت بلا عمل فاقتربت فرأيت ساكنة في الطابق الثاني...

- السيدة مارتان؟

www.starbooks.shop

- أعتقد أن هذا هو اسمها، فأنا أعترف بأن معرفتي بجيراني ليست كما يجب. كانت تنقب في سطل من الزنك، وأذكر أنها قالت لي: ملعقة فضية سقطت سهواً في القمامة. فسألتها قائلاً: وهل عثرت عليها؟ فقالت بشيء من الحدة: نعم، نعم.

فسأل ميجريه قائلاً: وماذا فعلَت بعد ذلك؟

- عادت إلى مسكنها بخطى حثيثة. إنها إنسانة ضئيلة عصبية. وإذا لم تخنّي ذاكرتي فقد حدث أن فقدنا خاتماً قيّماً بهذه الطريقة، واللطيف أن أحد جامعي الخِرَق أعاده إلى الحارسة، إذ كان قد عثر عليه وهو يعالج القمامة بخطّافه.

- هل تستطيع أن تخبرني في أي ساعة وقعت هذه الحادثة؟

- قد يكون الأمر صعباً بالنسبة لي. لم أرغب يومها بتناول العشاء، وفي نحو الثامنة والنصف راح خادمنا ألبير يتوسل إليّ أن أتناول شيئاً، وعندما رفضت الجلوس إلى المائدة أحضر لي إلى غرفة الاستقبال فطائر صغيرة، وكان ذلك قبل...

- قبل الثامنة والنصف؟

- نعم. ولنفترض أن الحادثة وقعت بعد الثامنة بقليل كما تقول... ولكني لا أعتقد أن لهذا الأمر أية أهمية، فمن جهتي أنا أرفض تصديق ما بدأت تروّجه الشائعات من أن الجريمة ارتكبها شخص من العمارة. إن أي شخص يمكن أن يدخل الفناء من جهة الدهليز، لذلك فإنني سأوجه للمالك طلباً لكي يقفل بابه الخلفي بعد الغروب.

www.starbooks.shop

نهض ميجريه واقفاً لينصرف. وفي تلك اللحظة أقبلت الحارسة تحمل البريد، ولما كان باب الردهة ما يزال مفتوحاً فقد لمحت المفتش فجأة وهو يختلي بالسيد سان مارك، فتراجعت على عقبيها ونظرتها تكشف عن قد كبير من الاضطراب.

لعلها فكرت: ترى هل يسمح ميجريه لنفسه بأن يرتاب في آل سان مارك أو بمجرد مضايقتهم بأسئلته؟

قال ميجريه وهو ينصرف: أشكرك يا سيدي، وأرجو أن تغفر لي هذه الزيارة.

كان السيد سان مارك سيداً على قدر كبير من العظمة، تدل هيئته على رجل السياسة أكثر مما تدل على رجل الدبلوماسية، وقد أجاب قائلاً: أنا تحت أمرك.

وعندما أغلق الخادم الباب هبط ميجريه الدرج بتمهّل، فوجد نفسه في الفناء حيث يبحث موزع أحد المتاجر عن الحارسة دون جدوى، فلم يكن في شقتها سوى كلب وقطة والطفلان الصغيران المشغولان بتلطيخ بعضهما بالحساء.

- أمك هنا؟

- ستعود بعد قليل يا سيدي، فقد ذهبت بالبريد.

في زاوية وضيعة من الفناء، بالقرب من غرفة الحارسة، كانت توجد أربعة أوعية من الزنك يأتيها السكان في الليل فيلقون قُمامتهم فيها، وفي السادسة صباحاً تفتح الحارسة باب الدخول فيأتي رجال التنظيم ويفرغون الأوعية في عربتهم. هذا الركن لا

www.starbooks.shop

يكون مضيئاً في المساء، فالمصباح الوحيد الذي ينير الفناء يوجد في الناحية الأخرى أسفل الدرج.

هل جاءت السيدة مارتان تبحث في اللحظة التي قُتل فيها كوشيه؟ هل كانت هي الأخرى مصممة على العثور على قفاز زوجها؟

لا. دمدم ميجريه بهذه الكلمة وقد تذكر فجأة أمراً، فمارتان لم يُنزل القمامة إلا في وقت متأخر جداً. إذن فما معنى هذه الحكاية؟ الأمر لا يمكن أن يتعلق بملعقة ضائعة، ففي أثناء النهار لا يحق للسكان أن يضعوا أي شيء داخل الأوعية الفارغة، إذن عن أي شيء كانا يبحثان كلاهما، الواحد بعد الآخر؟ لقد كانت السيدة مارتان تنقب في نفس الوعاء، ومارتان كان يحوم حوله وهو يشعل أعواداً من الثقاب، والقفاز عثر عليه في اليوم التالي.

- هل شاهدت الطفل؟

أتى هذا الصوت من خلف ميجريه، وكان صوت الحارسة التي كانت تتحدث عن طفل آل سان مارك وهي أكثر تأثراً مما لو كانت تتحدث عن ابنيها، واستطردت قائلة: أظن أنك لم تخبر السيدة بشيء، فمن الواجب أن لا تعلم.

- أعرف، أعرف.

- أما عن الإكليل... أقصد إكليل السكان، فإنني أتساءل إن كان من الواجب أن نحمله اليوم إلى منزل الميت أم أن العرف يحتّم أن لا نقدمه إلا ساعة الجنازة. لقد كان السكان لطفاء للغاية،

www.starbooks.shop

فقد جمعوا ثلاثمئة فرنك.

ثم قالت وهي تلتفت إلى أحد الموزعين وهو يسأل: أين شقة سان مارك؟

- الدرج الذي إلى اليمين، الطابق الأول المواجه. لكن اضغط على الجرس برقّة أرجوك.

ثم قالت لميجريه: آه لو عرفت مقدار ما تتلقاه من زهور! لدرجة أنهما لا يعرفان أين يضعانها. لقد اضطرا لوضع الجزء الأكبر منها في حجرات الخدم. ألا تحب أن تدخل؟ جوجو، ألن تدع أختك في حالها؟

كان المفتش ما يزال ينظر إلى الأوعية محاولاً أن يتوصل لمعرفة ما كان يبحث عنه مارتان وزوجته فيها، ثم سأل الحارسة: هل تنقلينها في الصباح فوق الرصيف كما هو متبَع؟

- لا، فقد صار هذا العمل مستحيلاً منذ أن مات زوجي، أو أنه يلزمني عندئذ شخص آخر ليساعدني لأنها شديدة الثقل بالنسبة لي. إن رجال التنظيم متعاونون، وهم يأتون حتى الفناء كي يحملوا الأوعية.

- حتى لا ينقّب فيها جامعو الخِرَق؟

- هل تعرف ذلك؟ إنهم أيضاً يدخلون الفناء، وفي بعض الأحيان يكونون أربعة أو خمسة، فيوسخون المكان بطريقة فظيعة.

- أشكرك.

www.starbooks.shop

-٣-

انصرف ميجريه غارقاً في التفكير وقد نسي أن يزور المكاتب التي كان ينوي زيارتها، وعندما بلغ مكتبه كان في انتظاره مَن يقول له: طلبك شخصٌ بالهاتف، كولونيل.

ولكنه واصل تفكيره، وما إن فتح باب مكتب المفتشين حتى نادى قائلاً: لوكا، ستذهب الآن فوراً وستقوم باستجواب جميع جامعي الخرق الذين تعوّدوا أن يترددوا على ضواحي ميدان ألفاج، وإذا لزم الأمر ستذهب إلى مصنع سان ديني الذي تُحرق فيه القمامة.

- ولكن...

- يجب أن تعرف لو كان أحدهم قد لاحظ شيئاً غريباً في الأوعية الخاصة بالعمارة رقم ٦١ في ميدان ألفاج صباح أول أمس.

ثم رمى نفسه فوق الكرسي، ومرت بخاطره كلمة «كولونيل». أي كولونيل؟ إنه لا يعرف منهم أحداً. آه، أجل، إن أحدهم يرد في القصة، وهو عم السيدة كوشيه، فماذا يريد منه؟

- مرحباً، أنا ميجريه، مفتش المباحث. نعم؟ الكولونيل دورموي هو الذي يريد أن يتحدث إليّ؟ أنا على الجهاز. مرحباً، أهذا أنت يا سيدي الكولونيل؟ ماذا جرى؟ وصية؟ أنا لا أسمع جيداً. لا، بالعكس، أخفض صوتك وابتعد قليلاً عن الجهاز. حسناً، هذا أفضل. ماذا تقول؟ عثرتم على وصية غريبة وغير

www.starbooks.shop

معقولة أيضاً؟ مفهوم، سأكون عندكم بعد نصف ساعة.

ثم أشعل غليونه وهو يدفع الكرسي ووضع ساقاً فوق الأخرى.

* * *

www.starbooks.shop

الفصل السابع

-١-

- الكولونيل ينتظرك في حجرة سيادته، تفضل واتبعني.

كان نعش الميت مغلقاً وثمة حركة في الحجرة المجاورة التي يبدو أنها حجرة السيدة كوشيه، ودفعت الخادمة أحد الأبواب فلمح ميجريه الكولونيل واقفاً بالقرب من المنضدة وقد وضع عليها يده، مرفوع الهامة وقوراً ثابتاً كأنه يقف أمام نحّات يصنع له تمثالاً.

- تفضل بالجلوس.

إلا أن ميجريه لم يجلس، بل اكتفى بفك أزرار معطفه الثقيل ووضع قبعته فوق أحد الكراسي، ثم شرع يحشو الغليون وقال وهو ينظر حوله باهتمام: هل أنت الذي عثر على الوصية المذكورة؟

- نعم، صباح اليوم. إن ابنة أخي لم تعلم شيئاً بعد، ويجب أن أقول إن الأمر يدعو إلى الاشمئزاز الشديد.

www.starbooks.shop

كانت حجرة غريبة على شاكلة كوشيه وأثاث على الطراز الكلاسيكي شأن بقية الحجرات، وثمة بعض التحف القيمة، وإلى جوار ذلك كان الناظر يرى أشياء تنم عن ميول الرجل الغريبة. وأمام النافذة كانت ثمة منضدة يبدو أنه كان يتخذ منها مكتباً عليها مجموعة كاملة من الغليونات سوّدها كوشيه من فرط الاستعمال.

وكان في المنضدة درج، فقال الكولونيل دورموي: أظنك تلاحظ أنه مغلق بالمفتاح، ولا أدري إن كان المفتاح موجوداً. لقد حدث صباح اليوم أن احتاجت ابنة أخي لبعض المال لتسدد حساب أحد الموردين، فبحثت في هذه الحجرة، وهذا ما وجدته.

ظرف يحمل اسم غراند أوتيل وورقة خطاب ضاربة إلى الزرقة تحمل نفس الشعار، ثم أسطر يبدو أنها خُطَّت بلا تركيز وكأنها مسوّدة، مكتوب عليها: «هذه وصيتي»، وبعد ذلك هذه الوصية التي لم تكن بالحسبان:

> نظراً لأنني قد لا أهتم بالاستعلام عن قوانين الإرث فإنني أرجو السيد دامبير، موثّق عقودي، أن يبذل جهده بحيث تُقسم ثروتي بالتساوي ما أمكن بين: أولاً زوجتي جرمين دورموي، ثانياً زوجتي الأولى، وهي اليوم زوجة السيد مارتان الساكنة في ميدان ألفاج عمارة رقم ٦١، ثالثاً نين مونار، التي تقيم في فندق بيغال بشارع بيغال.

www.starbooks.shop

- ماذا ترى؟

كان ميجريه مبتهجاً، فقد غدا كوشيه في نظره بعد هذه الوصية لطيفاً للغاية. وأردف الكولونيل قائلاً: طبعاً هذه الوصية ساقطة، فهي تحوي كثيراً من أسباب بطلانها، وبمجرد انتهاء الجنازة سنطعن فيها، ولكني وجدت من المهم ومن الضروري أن أتحدث إليك الآن لأن...

كان ميجريه ما يزال يبتسم كما لو كان يشهد ملهاة، حتى ورقة الغراند أوتيل تلك. فالظاهر أن كوشيه مثل كثيرين من رجال الأعمال الذين لا يملكون مكاتب في قلب المدينة كان يتخذ من الغراند أوتيل مكاناً للقاءاته، وبانتظار أحد الأشخاص سحب ورقة وكتب تلك السطور. ولم يغلق الظرف، بل ألقى به في دُرجه مرجئاً عملية تحرير هذه الوصية طبقاً للقواعد الفنّية لوقت لاحق، ومضى على ذلك خمسة عشر يوماً.

قال الكولونيل: لا بدّ أنك فوجئت بهذا الأمر الغريب، فقد نسي كوشيه مجرد ذكر ابنه، وهذا وحده يعتبر دليلاً كافياً على بطلان الدعوى و...

- هل تعرف روجيه؟

- أنا؟ لا.

كان ميجريه ما يزال يبتسم.

- كنت أقول الآن إنني إذا كنت قد رجوتك للمجيء فذلك لأن...

www.starbooks.shop

- هل تعرف نين مونار؟

ذُعر المسكين كما لو أن أحداً داس على قدمه وقال: لا داعي لأن أعرفها. إن عنوانها فقط بشارع بيغال يعطيني فكرة عنها! ولكن ماذا كنت أقول؟ أجل، هل رأيت تاريخ الوصية؟ إنه حديث، فقد مات كوشيه بعد كتابتها بأسبوعين، قُتل. افترض إذن أن إحدى المرأتين المذكورتين كانت قد علمت بهذه الوصية، إنني أعتقد أنهما ليستا من الثراء في شيء.

- ولماذا تقول امرأتين؟

- ماذا تقصد؟

- ثلاث نساء... إن الوصية تذكر ثلاث نساء.

اعتقد الكولونيل أن ميجريه يمزح، فقال: إنني أتكلم جاداً، ولا تنسَ أن في البيت قتيلاً وأن الأمر يتعلق بمستقبل أشخاص عديدين.

الأمر بديهي! ولم يحُل ذلك دون رغبة ميجريه في الضحك، ولم يكن يستطيع هو نفسه أن يستبين السبب، فقال للكولونيل: أشكرك لأنك أطلعتني.

كان الكولونيل مغموماً، وقال: إنني أفترض أن...

- إلى اللقاء يا سيدي الكولونيل، وأرجوك أن تنقل تحياتي للسيدة كوشيه.

www.starbooks.shop

-٢-

في الشارع لم يستطع أن يكتم تلك الدمدمة: كوشيه، أيها الجليل!

هكذا، بجِدّ لا هزل فيه، وضع السيدات الثلاث في وصيته، بما في ذلك زوجته الأولى التي أصبحت السيدة مارتان والتي كانت لا تفتأ تقف في طريقه حتى تصوّب نحوه نظرة ازدراء وكأنها تأنيب حي! وكذلك نين الصغيرة الرضيّة التي كانت تبذل وسعها لنيل رضاه، وعلى النقيض من ذلك نسي أن له ولداً.

ظل ميجريه لحظة طويلة يسائل نفسه عن أول شخص يحمل له هذا الخبر. أيحمله للسيدة مارتان التي قد تكفي الثروة لتدفعها من السرير؟ أم إلى نين؟

ثم قال في نفسه: إنهما لم تملكا النقود بعد، وهي مسألة من شأنها أن تستغرق سنوات، فقد تُرفع دعوى وقد لا تستسلم السيدة كوشيه. وعندما فكر في الأمر أعجب بنزاهة الكولونيل، فقد كان باستطاعته أن يحرق الوصية دون أن يعلم بها أحد.

اخترق ميجريه الحي الأوروبي بمرح والشمس الساطعة تلطف من برودة الجو الذي يسوده نوع من البهجة، واستمر يقول: كوشيه، أيها الجليل!

ثم دخل مصعد فندق بيغال دون أن يسأل شيئاً، وبعد لحظات كان يطرق باب نين. كانت ثمة ضوضاء بالداخل، وانفرج الباب بمقدار يسمح بمرور يد ظلت ممتدة في الفضاء. كانت يد

www.starbooks.shop

امرأة كستها التجاعيد، ولما لم يتحرك ميجريه نفد صبرها ففرجت الباب قليلاً وبدا وجه عجوز إنكليزية. ثم دار حديث غير مفهوم باللغة الإنكليزية أدرك منه ميجريه أن العجوز تنتظر بريدها، وهذا ما كانت تدل عليه حركتها، والأوضح من ذلك هو أن نين لم تعُد تشغل حجرتها، وقد لا تكون في الفندق كله.

حدث ميجريه نفسه قائلاً: إن الأجر هنا مرتفع جداً بالنسبة إليها.

ثم توقف متردداً أمام الباب المجاور، فحمله أحد الخدم على اتخاذ قرار عندما سأله بتشكك: عن ماذا تبحث؟

- السيد روجيه كوشيه.

- ألا يردّ؟

- لم أطرق الباب بعد.

ابتسم ميجريه مرة أخرى. كان سعيداً، فقد شعر فجأة ذلك الصباح أنه يشترك في أداء مشهد هزلي. إن الحياة كلها كانت مهزلة، ومقتل كوشيه كان مهزلة، وخصوصاً وصيته.

سمع من الداخل صوتاً يقول: ادخل.

وتحرك القفل في الباب، فكان أول ما صنعه ميجريه هو أن أزاح الستائر وفتح النافذة. لم تكن سيلين قد استيقظت بعد، وكان روجيه يفرك عينيه ويتثاءب، وقال: آه! أهذا أنت؟ ماذا تريد؟

- لقد عُثر على الوصية.

www.starbooks.shop

لم يظهر روجيه أي انفعال، اللهم إلا فضولاً غامضاً، واستطرد ميجريه قائلاً: إنها وصية غريبة، ولسوف يجني المحامون من ورائها أموالاً طائلة. تصور أن والدك ترك كل ثروته لنسائه الثلاث!

بذل الشاب مجهوداً ليستطيع أن يفهم، وسأل: نساؤه؟!

- نعم، زوجته الحالية، ثم والدتك، وأخيراً صديقته نين التي كانت ما تزال جارتك حتى الأمس. لقد كلف موثّق عقوده أن يقوم باللازم لتحصل كل منهن على ثلث الثروة.

لم يحرك ذلك من روجيه ساكناً. كان يبدو عليه التفكير، ولكنه ليس تفكيراً في أمر يخصه شخصياً، ثم قال أخيراً بلهجة رزينة تتناقض مع الكلمات: الأمر واضح.

- هذا بالضبط ما قلته للكولونيل.

- أي كولونيل؟

- عمّ السيدة كوشيه، إنه يقوم إلى جانبها بدور سيد العائلة.

بقي الشاب هادئاً في سريره فسأله ميجريه: لا يبدو أنك تأثرت بهذا الخبر؟

- أنا؟ أنت تعلم.

كان قد نهض ومشى إلى النافذة التي كانت تسمح بدخول هواء شديد البرودة فأغلقها، وقال له ميجريه: ألست في حاجة إلى المال؟

www.starbooks.shop

كان ميجريه قد تحول فجأة إلى الجِدّ وغدت نظرته ثقيلة وفاحصة، فقال روجيه: لا أعلم.

- ألا تعلم إن كنت بحاجة إلى المال أم لا؟

وجّه روجيه إلى المفتش نظرة ضبابية، فأحسّ ميجريه بضيق، في حين أجابه روجيه قائلاً: أنا لا أهتم.

- يبدو أنك تكسب كثيراً من المال.

- أنا لا أكسب درهماً واحداً.

ثم تثاءب ونظر إلى نفسه في المرآة عابساً، فلاحظ ميجريه أن سيلين كانت قد استيقظت، لم تكن تتحرك، ويبدو أنها سمعت شطراً من المحادثة لأنها كانت ترقب الرجلين بفضول. كان جو الحجرة بالفوضى التي تسودها ورائحتها المكتومة وهذين الكائنين الخاملين أشبه شيء بعصارة مجتمع خائر العزم.

- هل تدّخر شيئاً من المال؟

بدأ روجيه يضيق بتلك المحادثة وراح يبحث عن سترته، ثم أخرج منها حافظة صغيرة فألقاها إلى ميجريه قائلاً: فتّش!

كانت فيها ورقتان من فئة مئة فرنك وبعض أوراق النقد الصغيرة ورخصة قيادة فقط، فقال ميجريه: ماذا تفعل إذا هُضم حقك في الميراث؟

- أنا لا أريد ميراثاً.

- ألن تطعن في الوصية؟

www.starbooks.shop

- لن أفعل.

رنّت هذه الكلمات بطريقة غريبة، حتى إن ميجريه الذي كان ينظر إلى البساط رفع رأسه قائلاً: هل تكفيك ثلاثمئة ألف فرنك؟

عندئذ تغير موقف الشاب، فسار ناحية المفتش وتوقف على بعد خطوة منه حتى تلامست كتفاهما ودمدم وهو يضغط على قبضتيه قائلاً: مرة ثانية!

في تلك اللحظة اتّسم مسلكه بشيء من العنف والسوقية، فكرر ميجريه: سألتك إن كانت ثلاثمئة وستون ألف فرنك...

استطاع ميجريه بالكاد أن يصدّ ذراع محدثه، وإلا لكان قد تلقى لكمة من أقوى اللكمات في حياته، وقال: هدّئ من روعك.

ولكن روجيه كان هادئاً ولم يحاول أن يخلص نفسه! كان شاحباً ثابت النظرة، وكان ينتظر أن يتركه المفتش ليعاود الضرب. أما سيلين فكانت قد قفزت من فوق السرير، وقد بدت مستعدة لفتح الباب والاستغاثة.

ثم مرّ كل شيء بهدوء، فلم يضغط ميجريه على رسغه إلا لثوان معدودات، وعندما ترك له حرية التحرك لم يتحرك الشاب. وحلّت لحظة طويلة من الصمت يظن الناظر أن كلاً منهما يتردد في قطعها كأنهما في معركة يتردد كل منهما في أن يكون أول من يضرب، وأخيراً تكلم روجيه قائلاً: إنك تتدخل في الأمور أكثر من اللازم.

- هل تسمح أن تخبرني عمّا تنوي عمله عندما تنفق النقود

www.starbooks.shop

القليلة التي في محفظتك؟

- وماذا فعلت حتى الآن؟

- لا يوجد إلا اختلاف بسيط. والدك قُتل ولن تستطيع أن تطالبه بمزيد من المال.

رفع روجيه كتفيه كمن يريد أن يقول إن محدثه لا يدرك من الأمر شيئاً، واكتنف المكانَ جوٌّ لا يمكن وصفه. لم يكن جو مأساة بالمعنى الحقيقي، وإنما كان شيئاً آخر يبعث على التأثر. إنه روجيه الذي كان يثير الخوف لأن أعماله وحركاته لم تكن تتفق وماضيه وتتناقض مع ما يعرفه ميجريه عن طباعه. كان هادئاً، ولم يكن في ذلك متصنعاً، كان هادئاً فعلاً.

قال المفتش فجأة: أعطني مسدسك.

فأخرجه الشاب من جيب سرواله وقدمه وعلى شفتيه ظل ابتسامة.

- هل تعدني بأن...

لم يكمل لأنه رأى المرأة على أهبة الاستعداد لأن تصرخ فزعاً. كانت لا تدرك شيئاً، غير أنها كانت تشعر أن أمراً فظيعاً يجري! وبدت السخرية في عيني ميجريه. كان الأمر أشبه بالهرب، ولم يعُد لدى ميجريه ما يقوله أو ما يأتيه، فتقهقر واصطدم عند خروجه بإفريز الباب وهو يكتم سبابه.

www.starbooks.shop

في الشارع فقدَ مزاجَه المرح الذي كان يتمتع به في الصباح ولم يعُدْ في الحياة أيّ مسلك هزلي، ورفع رأسه ليرى نافذة غرفة روجيه العالية، لكنها كانت مغلقة فلم يرَ شيئاً.

كان معكر المزاج كما يحدث للمرء فجأة عندما يعجز عن الفهم. لقد رأى في عينَي روجيه بضع نظرات لم يستطع تفسيرها. لم تكن النظرات التي كان ينتظرها؛ كانت لا تتفق وبقية ما جرى.

وعاد أعقابه، فقد نسي أن يسأل في الفندق عن عنوان نين الجديد، فقال له البواب: لا أعلم، لقد دفعت أجر غرفتها وانصرفت بحقيبتها، ولم تستدعِ سيارة أجرة، فيبدو أنها اختارت فندقاً أرخص في الحي.

- من فضلك، لو حدث في الفندق أي شيء غير عادي فأرجوك أن تخبرني شخصياً. أنا ميجريه، مفتش مباحث.

لقد حقد على هذا الإجراء، فماذا يمكن أن يحدث؟ ولم يَحُل ذلك دون أن يفكر في الورقتين من فئة مئة فرنك في الحافظة ونظرة سيلين الخائفة.

بعد ربع ساعة دخل مسرح الطاحونة من باب الفنانين. كانت الصالة فارغة مظلمة، وكانت المقاعد مبطنة بحرير أخضر وعلى خشبة المسرح ست فتيات يرتعشن من البرد على الرغم من معاطفهنّ الثقيلة، وكنّ لا يفتأن يكررن نفس الخطوات، خطوات من البساطة بحيث تثير الضحك، في حين كان رجل بدين انبحّ

www.starbooks.shop

صوته يصرخ مردداً لحناً موسيقياً: واحد، اثنان... واحد، اثنان، ثلاثة...

كانت نين هناك، وقد عرفت ميجريه الذي كان واقفاً بالقرب من أحد الأعمدة ورآها هو أيضاً، ولكن الأمر كان سيان بالنسبة إليه. واستمر التمرين ربع ساعة، وكان الجو أشد برودة في الداخل منه في الخارج! كانت قدما ميجريه جامدتين من فرط البرد، وأخيراً جفف الرجل جبينه وقذف فرقته بالشتائم عوضاً عن التحية، وصاح من بعيد مخاطباً ميجريه قائلاً: أمن أجلي جئت؟

- لا، بل من أجل...

اقتربت نين منه بضيق فقال: لديّ خبر مهم جئت لأخبرك به.

- ليس هنا، فنحن لا يحق لنا أن نستقبل أحداً في المسرح إلا في المساء لأن هذا يستوجب دفع رسوم الدخول.

جلسا إلى طاولة في مقهى صغير مجاور، وعندها قال: لقد عثروا على وصية كوشيه، وقد ترك ثروته كلها لثلاث سيدات.

نظرت إليه متعجبة دون أن تفطن إلى الحقيقة، فقال: زوجته الأولى أولاً، مع أنها تزوجت من جديد، ثم زوجته الثانية، ثم أنت.

بقيت عيناها مثبتتين على ميجريه الذي شاهد حدقتيها تتسعان ثم تمتلئان بالدموع، وأخيراً أخفت وجهها في راحتيها وانفجرت بالبكاء.

* * *

www.starbooks.shop

الفصل الثامن

-١-

قالت نين: كان مريضاً بالقلب، وكان يعرف ذلك، لذلك كان لا يبالغ في الجهد ويعتني بصحته. كان يقول إنه اشتغل بما فيه الكفاية وإن الوقت قد حان لكي يتمتع بالحياة.

- هل كان يتحدث عن الموت؟

- في كثير من الأحيان، ولكن ليس عن هذه الميتة، كان يفكر في المرض الذي أصاب قلبه.

كانا في مقهى صغير من النوع الذي لا يتردد عليه إلا زبائنه الدائمين، وكان صاحبه ينظر إلى ميجريه خلسة كأنه برجوازي ثري.

- هل كان حزيناً؟

- هذا يصعب شرحه لأنه لم يكن رجلاً كغيره من الرجال، فكان يحدث مثلاً أن يكون في حالة نفسية جيدة ثم إذا به يقول دونما سبب وهو يضحك عالياً: ما أقذر الحياة!

www.starbooks.shop

- هل كان يهتم بابنه؟

- لا.

- هل كان يتحدث عنه؟

- مطلقاً، فقط عندما كان يأتيه ليسأله مالاً.

- وماذا كان يقول؟

- كان يتنهد قائلاً: يا له من شقي مسكين!

كان ميجريه قد شعر بذلك، فلسبب ما قلما كان كوشيه يشعر نحو ابنه بعاطفة، بل كان يبدو أنه أصيب من ناحيته بنفور، نفور بلغ حداً لم يحاول معه أن ينقذه لأنه لم يكن يؤنبه على الإطلاق، بل كان يعطيه المال تخلصاً منه أو شفقة به.

بعد قليل نهض ميجريه ونهضت معه نين فخرجا من المقهى ووقفا قليلاً على الرصيف في شارع فونتين، فسألها قائلاً: أين تقيمين الآن؟

- في شارع لوبيك، أول فندق إلى اليسار. وهو فندق مناسب.

- عندما تصبحين ثرية سيكون باستطاعتك...

ابتسمت بلطف وقالت: أنت تعرف جيداً أنني لن أكون ثرية ما حييت، فأنا لم أخلق لذلك.

الأغرب من موقفها هو أن ميجريه كان يشعر نفس الشعور.

www.starbooks.shop

لم تخلق لتكون غنية في يوم من الأيام، وهو لا يستطيع أن يدرك لذلك سبباً.

- سأصطحبك حتى ميدان بيغال وأركب الترام من هناك.

سارا ببطء، هو ضخم ثقيل وهي ضئيلة جداً إلى جانبه.

- آه لو علمتَ ما أقاسيه في وحدتي! لحسن الحظ هناك المسرح، فعندنا تمرينان كل يوم في انتظار الاستعراض الجديد.

كان عليها أن تخطو خطوتين لكل خطوة من ميجريه، حتى إنها كانت تجري تقريباً، وعند زاوية شارع بيغال توقفا فجأة، في حين زَمّ المفتش حاجبيه ودمدم قائلاً: الغبي!

لم يكن الناظر ليستطيع أن يرى شيئاً، كان في مواجهة فندق بيغال جمع من نحو أربعين شخصاً، وعند عتبة الباب شرطي يحاول أن يساعد الناس على المرور. كان هذا كل ما في الأمر، غير أن المكان كان يكتنفه ذلك الجو الخاص، ذلك الصمت الذي لا يخيم على الشارع إلا عند وقوع المصائب، فقالت نين باهتمام: ماذا جرى في الفندق الذي كنت أنزل فيه؟

- لا شيء، عودي أنت.

- ولكن إذا...

فقال ميجريه بطريقة آمرة باردة: عودي أنت.

فأطاعته خائفة، في حين راح هو يشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور وبعض النساء يمطرنَه بالسباب، وعرفه الشرطي فأدخله

www.starbooks.shop

إلى صالة الفندق، وكان مفتش القسم موجوداً هناك يتحدث إلى البواب الذي صاح وهو يشير إلى ميجريه قائلاً: ها هو ذا، إنني أعرفه.

تصافح رجلا الشرطة، وكانت ثمة أصوات عويل وأنين وتمتمة مبهمة تأتي من حجرة استقبال صغيرة تفضي إلى الصالة، فسأل ميجريه قائلاً: كيف حدث الأمر؟

- تقول زوجته إنه كان يقف أمام النافذة هادئاً للغاية وهو يصفر فيما كانت هي مستغرقة في عمل ما، وفجأة لم تعُد تسمع شيئاً، فأقلقها إحساس بالفراغ، فنظرت حيثما كان ولكنه لم يكن موجوداً، وكان مستحيلاً أن يكون قد خرج من الباب.

- مفهوم. ألم يُصَب أحد عند سقوطه على الرصيف؟

- لحسن الحظ لم يُصَب أحد، وقد مات مباشرة.

في تلك اللحظة وصل الشرطي ليعلن أمراً: ها هم.

وراح مفتش القسم يشرح الأمر لميجريه قائلاً: إنها سيارة الإسعاف، فلم يكن أمامنا غير هذا الإجراء. هل له عائلة علينا إخبارها؟ عندما وصلت كان البواب يقول لي إن الشاب تلقى زيارة في هذا الصباح قام بها رجل طويل جسيم، وكان يصف لي ذلك الرجل في اللحظة التي وصلت أنت فيها، فكنت أنت المَعنيّ بالحديث. هل من الواجب أن أقوم بكتابة تقرير أم أنك ستتكفل بكل شيء في الموضوع؟

- اكتب التقرير.

www.starbooks.shop

- وماذا عن العائلة؟

- سأتكفل أنا بها.

ثم دفع باب حجرة الاستقبال فرأى جسماً ممدداً على الأرض يختفي تماماً تحت غطاء أحد الأسرّة، وكانت سيلين تجلس خائرة في أحد الكراسي تصدر عويلاً منتظماً، في حين كانت سيدة ضخمة (هي صاحبة الفندق أو مديرته) تبالغ في مواساتها.

ولم يرفع ميجريه الغطاء، بل إنه لم يظهر لسيلين، ومضت بضع لحظات أتى الممرضون بعدها فحملوا الجثة إلى عربة الإسعاف التي تحركت باتجاه معهد الطب الشرعي.

-٢-

"كان يصفر، وفجأة لم أعُد اسمع شيئاً".

كان ميجريه يصعد درج عمارة ميدان ألفاج بطيئاً، وكلما كان يقترب من الطابق الثاني كان وجهه يزداد تقطيباً. كان باب ماتيلدا العجوز منفرجاً، وربما كانت المرأة مترصدة وراءه، ولكنه هزّ كتفيه وشدّ حبل الجرس الذي يتدلى أمام باب آل مارتان.

كان غليونه بين شفتيه، وفكر لحظة بوضعه في جيبه، ثم هز كتفيه مرة أخرى، وسمع أصوات همهمة مبهمة وصوت رجلين يقتربان، وأخيراً سمع فتح الباب.

- أجل يا دكتور، شكراً لك.

www.starbooks.shop

كان السيد مارتان خائراً، ورآه ميجريه على حاله التي تدعو إلى الشفقة التي كان عليها في الصباح.

- أهذا أنت؟

توجه الطبيب ناحية الدرج في حين دعا السيد مارتان المفتش إلى الدخول لإلقاء نظرة خاطفة في حجرة النوم.

سأله: هل ساءت حالها؟

- لا ندري. إن الطبيب لا يريد أن يقرر، وسوف يعود هذا المساء.

ثم تناول عن المنضدة وصفة طبية وثبت عليها عينيه الفارغتين قائلاً: ليس عندي أحد ليذهب إلى الصيدلية.

- ماذا حدث؟

- تقريباً نفس ما حدث في تلك الليلة، ولكن بطريقة أشد، فقد شرعت ترتعد وتهذي بألفاظ لا تُفهم، فأرسلت في طلب الطبيب الذي وجد أن حرارتها تبلغ أربعين درجة.

- أهي تهذي؟

- ما دمت أقول لك إننا لا نفهم ما تقول! يلزمنا ثلج لنضعه فوق جبينها.

- هل تحب أن أبقى هنا ريثما تذهب إلى الصيدلية؟

كاد مارتان يرفض، ثم استسلم للأمر فارتدى معطفه وانصرف

www.starbooks.shop

وهو يتحرك بطريقة محزنة تثير الضحك، ثم عاد أعقابه لأنه نسي أن يأخذ معه نقوداً.

لم يكن لميجريه أي غرض من بقائه في الشقة، فلم يهتم بشيء ولم يفتح درجاً، بل لم يحاول أن ينظر إلى كومة من الخطابات كانت موضوعة فوق إحدى قطع الأثاث. كان يسمع التنفس غير المنتظم الذي يصدر عن المريضة التي كانت تطلق من آن إلى آخر زفرة طويلة ثم تهذي بألفاظ مبهمة. وعندما رجع السيد مارتان وجده في نفس المكان.

- هل أحضرت كل ما يلزم؟

- نعم، شيء فظيع! إنني لم أخطر المكتب.

كانت جبهة السيدة مارتان تتفصد عرقاً وشعرها الذي وخطه الشيب يلتصق بخديها، وقد بهت لون شفتيها، أما عيناها فكانتا ما تزالان تفيضان حياة بطريقة عجيبة. أتراهما تعرفتا على ميجريه الذي كان يقف فوق رأس المريضة؟ لا يبدو، ولكنها كانت تبدو هادئة بعض الشيء، وكان كيس الثلج فوق جبينها، وعلى هذه الحال لبثت ثابتة لا تتحرك وهي تنظر إلى السقف.

سحب المفتش السيد مارتان من يده إلى حجرة الطعام حيث قال: عندي أنباء كثيرة أريد أن أخبرك بها.

سأل مارتان برجفة قلق: ماذا؟

فقال ميجريه: لقد عُثر على وصية كوشيه، وقد ترك ثلث ثروته لزوجتك.

www.starbooks.shop

- كيف؟!

كان الموظف يضطرب مذهولاً لهذا الخبر، ثم قال: تقول إنه ترك لنا...

- ثلث ثروته، ومن المحتمل أن لا يتم الموضوع بسهولة، فقد تعارض زوجته لأنها من جانبها لن تحصل إلا على ثلث الثروة هي أيضاً.

علامَ هذا الحزن الذي بدا في وجه مارتان؟ بل إنه أكثر من حزن، إنه ذعر! إنه يمعن النظر في الأرض عاجزاً عن السيطرة على نفسه.

- أما الخبر الآخر فهو أقل بهجة، وهو يتعلق بابن زوجتك.

- روجيه؟

- لقد انتحر هذا الصباح بإلقاء نفسه من نافذة غرفته في الفندق بشارع بيغال.

عندئذ رأى المفتش مارتان القصير يقفز على عقبيه وينظر إليه غاضباً ساخطاً وهو يصرخ قائلاً: ماذا تقول؟ أنت تريد أن تدفعني إلى الجنون، أليس كذلك؟ اعترف بأن هذا كله إنما هو خدعة لكي تدفعني إلى الكلام.

- لا ترفع صوتك هكذا، زوجتك!

- الأمر عندي سيان... إنك تكذب... هذا مستحيل!

بات من الصعب أن يتعرف المرء على السيد مارتان. لقد

www.starbooks.shop

فقد سيطرته على نفسه تماماً مرة واحدة وفقد تلك التربية المهذبة التي طالما تعلق بها، وكان مما يثير فضول الناظر أن ينظر إلى وجهه المفكك وشفتيه اللتين ترتعدان ويديه اللتين تضطربان في الفضاء.

أكد له ميجريه قائلاً: أقسم لك أن هذين الخبرين صحيحان.

- ولكن لماذا يفعل ذلك؟! إنه خبر يسبب الجنون. ومع ذلك فإن ما يحدث الآن فيه الكفاية، فزوجتي في طريقها إلى الجنون. لقد رأيتها أنت، وإذا استمرت هذه الحال فسأجن أنا أيضاً... سنصبح كلنا مجانين.

اكتنفت نظرته حركة سقيمة. كان قد فقد كل سيطرة على نفسه، وقال: ابنها الذي يلقي بنفسه من النافذة، والوصية!

كانت كل ملامح وجهه متقلصة، وفجأة حلّت أزمة من الدموع، دموع حزينة مضحكة بغيضة، فقال له ميجريه: أرجوك، هدئ من روعك.

- حياة طويلة، أعوام متتالية، كل يوم في الساعة التاسعة ودون أدنى تأنيب، كل ذلك كي...

- أرجوك، تذكر أن زوجتك تسمعك وأنها مريضة جداً.

- وأنا؟ هل تعتقد أنني لست مريضاً؟ هل تعتقد أنني سأتحمل مثل هذه الحياة طويلاً؟

لم يكن رأسه ليتحمل البكاء، وهذا ما كان يجعل لدموعه تأثيراً، فقال له ميجريه: أنت لا دخل لك بالموضوع، أليس

www.starbooks.shop

كذلك؟ إنه ليس سوى ابن زوجتك، أنت لست مسؤولاً.

نظر مارتان إلى المفتش وقد هدأ فجأة، ولكن ذلك لم يدُم طويلاً، فقد قال: أنا لست مسؤولاً...؟

ثم استشاط غضباً واستطرد قائلاً: ولكن هذا لا يمنع كوني هدفاً لكل المضايقات، فها هنا تأتي أنت فتقصّ الحكايات، وعلى الدرج ينظر إليّ السكان شذراً، وأؤكد أنهم يظنون أنني قتلت كوشيه. وما أدراني أنك لا ترتاب فيّ أنت أيضاً؟ فماذا جئت تفعل هنا؟ ماذا؟ ها أنت لا تجيب، فأنت لا تجرؤ على الإجابة. إنهم يختارون الأضعف، فأنا رجل عاجز عن الدفاع عن نفسي، وزوجتي مريضة، و...

وبينما هو يلوّح بيديه بعصبية إذا بمرفقه يصطدم بالمذياع الذي تمايل وهوى على الأرض فتحطم مصدراً صوتاً أشبه بصوت تحطم المصابيح الكهربائية، وعندئذ عادت شخصية الموظف الصغير إلى الظهور، فقال: مركزٌ يدرّ ألفاً ومئتين من الفرنكات بقيت في انتظاره ثلاث سنوات قبل أن أحصل عليه.

وصلهما صوت أنّات من الحجرة المجاورة، فأرهف السمع ولكنه لم يتحرك، فقال له ميجريه: ألا تحتاج زوجتك إلى شيء؟

كان ميجريه هو الذي ينظر في الحجرة، وكانت السيدة مارتان ما تزال راقدة، فتلقى المفتش نظرتها، لكنه كان عاجزاً عن تحديدها، أهي نظرة ذكاء حاد أم نظرة قلقة بتأثير الحمى. لم تحاول أن تتكلم، وتركته ينصرف.

www.starbooks.shop

في حجرة الطعام أسند مارتان مرفقيه إلى خزانة صغيرة ووضع رأسه بين يديه وهو يقول: لماذا ينتحر؟

- افترض مثلاً أنه هو الذي...

وحلّ الصمت، ثم سُمع صوت أزيز وفاحت رائحة نفّاذة لم يتنبه إليها مارتان، فسأل ميجريه قائلاً: هل يوجد شيء على النار؟

ودخل المطبخ الذي كان يسوده بخار كثيف، فوجد على موقد النار وعاء فيه حليب وقد فار وسال على الموقد، فأغلق صنبور الجهاز وفتح النافذة، فرأى فناء العمارة ومعمل أمصال الدكتور ريفيير وسيارة المعمل واقفة هناك، واستطاع أن يسمع أصوات الآلات الكاتبة داخل المكاتب.

وإذا كان ميجريه يتلكأ في المطبخ فلم يكن ذلك بلا داع، فقد أراد أن يدع لمارتان فسحة من الوقت يهدأ فيها ويستعيد ثباته، فراح يحشو غليونه ببطء ويشعله من مصباح معلق فوق الموقد، وعندما عاد إلى حجرة الطعام لم يكن مارتان قد تحرك من مكانه، ولكنه كان قد هدأ، وقال: يبدو أن ذلك سينتهي نهاية سيئة، أليس كذلك؟

فأجاب ميجريه قائلاً: يوجد قتيلان.

- قتيلان؟

إنه لمجهود، مجهود ضخم ذلك الذي بذله مارتان ليظل مسيطراً على أعصابه بعد أن كان على وشك الانفعال من جديد، ثم قال: في هذه الحالة أعتقد أنه يستحسن...

www.starbooks.shop

- يستحسن ماذا؟

كان المفتش لا يكاد يتكلم، كان يحبس أنفاسه، كان يحس بضيق يطبق على صدره لأنه كان يشعر أنه قريب من الحقيقة.

قال مارتان: أجل... ليكن، فلا مفر، لا مفر...

ثم سار بطريقة آلية حتى الباب المفتوح، باب حجرة النوم، ونظر في الحجرة، وبقي ميجريه ينتظر ثابتاً صامتاً. لم يقُل مارتان شيئاً ولم يُسمع صوت زوجته، ولم يمنع ذلك أن شيئاً ما كان يبدو أنه يجري، واستمر الحال طويلاً، فبدأ المفتش يفقد صبره، ثم قال: وبعد؟

فتحول الرجل ناحيته ببطء وبوجه جديد، فسأله ميجريه قائلاً: ماذا؟

- كنت أقول إن...

وحاول مارتان أن يبتسم، فسأله ميجريه قائلاً: إن ماذا؟

- إنه يُستحسن لتجنب مآس جديدة...

- يُستحسن ماذا؟

مر مارتان بيده فوق جبهته كشخص يجد صعوبة في إثارة ذكرياته، ثم قال: أنا آسف، إنني مضطرب.

- لدرجة أنك نسيت ما كنت تريد أن تقوله؟

- نعم، لم أعُد أدري. انظر! إنها نائمة.

www.starbooks.shop

كان يشير إلى السيدة مارتان التي أغلقت عينيها وغدا وجهها أحمر قانياً، ربما بسبب وضع الثلج فوق جبينها.

- ما الذي تعرفه؟

وجه إليه ميجريه هذا السؤال بلهجة من خاطب شخصاً مشبوهاً على قدر كبير من الحذق، فأجاب قائلاً: أنا؟

وبعد هذا الاستفسار أصبحت كل الإجابات من نوع التهرب والتظاهر بالبلاهة.

- كنت على وشك أن تخبرني بالحقيقة.

- الحقيقة؟

- هيا، لا تحاول أن تبدو أبله، أنت تعرف قاتل كوشيه.

- أنا؟! أنا لا أعرف.

إذا كان مارتان لم يتلقَّ في حياته صفعة واحدة فقد كان قاب قوسين أو أدنى من صفعة ساخنة يتلقاها من يد ميجريه، أما ميجريه فكان يضغط على فكيه وينظر إلى المرأة الساكنة التي كانت نائمة، أو كانت تتظاهر بالنوم، ثم إلى الرجل الذي ما يزال جفناه منتفخين وملامحه مشدودة بتأثير الأزمة السابقة.

- هل تتحمل مسؤولية ما يمكن أن يحدث؟

- ماذا يمكن أن يحدث؟

- إنك مخطئ يا سيد مارتان.

www.starbooks.shop

- مخطئ لماذا؟

ماذا حدث؟ الرجل الذي كان على وشك الكلام أمضى دقيقة بين الحجرتين وعيناه مثبتتان على سرير زوجته، ولم يسمع ميجريه شيئاً ولم يتحرك مارتان، والآن ها هي ذي تنام وهو يتظاهر بالبراءة.

قال الرجل: أعتذر منك، فأنا أفقد صوابي في بعض الأحيان، وأنت لا تنكر أن الأمر يبعث على الجنون.

لم يمنع ذلك أنه بقي حزيناً، بل مغموماً، وعليه هيئة شخص محكوم عليه. وكانت نظرته تحاول أن تتجنب وجه ميجريه فراح يدور بنظراته بين الأرض والجدران، ثم وقعتا على المذياع فشرع يلتقط أجزاءه وقد انحنى على الأرض مولياً ظهره للمفتش، فسأله ميجريه قائلاً: متى سيعود الطبيب؟

- لا أدري، لقد قال إنه سيرجع في المساء.

عندئذ تركه ميجريه وغادر الشقة فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام ماتيلدا العجوز التي فزعت لرؤيته، حتى إنها لبثت ساكنة وقد فغرت فاها، فسألها ميجريه قائلاً: أليس لديك ما تقولينه لي؟ هل ستدّعين أيضاً أنك لا تعرفين شيئاً؟

حاولت أن تستعيد ثباتها، فقال ميجريه: تعالي ندخل عندك.

فسارت أمامه بتثاقل وترددت في دفع بابها المردود، فقال لها: هيا ادخلي.

www.starbooks.shop

ودخل ميجريه بعدها وأغلق وراءه الباب بضربة من قدمه، ولم يوجه نظرة واحدة إلى المجنونة التي كانت تجلس أمام النافذة، وقال: والآن تكلمي، مفهوم؟

وجلس بكل ثقة فوق أحد الكراسي.

❊ ❊ ❊

www.starbooks.shop

www.starbooks.shop

الفصل التاسع

-١-

- أولاً إنهما يقضيان حياتهما في عراك.

لم يتحرك لميجريه ساكن، لقد غاص حتى رقبته في كل هذه القذارة اليومية التي تبعث على الاشمئزاز أكثر من المأساة نفسها، وأمامه عجوز يبدو عليها تعبير مخيف من الابتهاج والتهديد. كانت تتكلم وتنوي أن تتكلم كثيراً بسبب بغضها لآل مارتان وللقتيل ولسكان العمارة جميعاً، بل بغض للإنسانية جمعاء، وربما بغض لميجريه نفسه!

كانت لا تزال واقفة ويداها مضمومتان فوق بطنها الضخم، ويكاد المرء يظن أنها أمضت حياتها بانتظار هذه اللحظة.

- أولاً إنهما يقضيان حياتهما في عراك.

كان لديها وقت، كانت تقطر كلماتها تقطيراً، وكانت تعطي نفسها فسحة من الوقت لتعبر عن ازدرائها للناس الذين يتعاركون.

- ولا حتى مثل جامعي الخرق! وهذا الوضع يرجع لفترة طويلة، حتى إنني تساءلت كيف لم يقتلها حتى الآن.

www.starbooks.shop

- هل كنت تتوقعين أن...

- عندما يعيش المرء في عمارة كهذه فيجب أن يتوقع كل شيء.

كان ينصت لنغمة صوتها، هل كانت أقرب إلى البغض من السخرية أم أقرب إلى السخرية من البغض؟

كانت الحجرة فسيحة، وكان فيها سرير مضطرب عليه ملاءات رمادية يبدو أنها لم تتعرض للهواء الطلق قط، ومنضدة ومرآة قديمة وموقد، وفي مقعد مقابله جلست المجنونة التي كانت تنظر أمامها وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة رقيقة.

سأل ميجريه قائلاً: هل تتلقين زيارات في بعض الأحيان؟

- لا.

- وأختك، ألا تخرج من هذه الغرفة؟

- أحياناً تفرّ إلى الدرج.

لاحظ ميجريه أن رائحة المكان تبعث على الكآبة. رائحة فقر قذر، رائحة هرم، وربما رائحة موت. وكانت في ذهنه أسئلة كثيرة يستطيع طرحها عليها، لكنه فضّل أن ينصت.

واستطردت قائلة: كانت هي التي تبدأ المشكلات دوماً... من أجل مسائل تتعلق بالمال طبعاً.

- هل تضربه؟

طرح ميجريه السؤال بلا سخرية، لم يكن افتراضه هذا أكثر

www.starbooks.shop

غرابة من غيره، فقد كان يسبح في بحر من الأعاجيب، حتى إن أي شيء لم يكن ليثير الدهشة.

- لا أعرف إن كانت تضربه أم لا، ولكن على كل فهي تكسر الأطباق ثم تبكي قائلة إنها لن تستطيع أن تحصل على بيت مناسب.

- باختصار هل تقع كل يوم فضائح من هذا القبيل؟

- ليست فضائح كبيرة، وإنما بعض التوبيخ والتأنيب، وفي الأسبوع تحدث فضيحتان أو ثلاث فضائح كبيرة.

- وهذا يعطيك فرصة للعمل!

لم تكن واثقة أنها فهمت، ونظرت إليه بقليل من القلق، فسألها: ما هي التأنيبات التي توجهها إليه في أغلب الأحيان؟

- كانت تقول له: عندما لا يملك المرء ما يعول به امرأة فإنه لا يتزوج! وتقول: لا يصح لرجل أن يخدع امرأة فيجعلها تعتقد أنه سيصبح غنياً، في حين أن الحقيقة غير ذلك. أو: إن المرء لا يسمح لنفسه بالاستحواذ على امرأة من رجل مثل كوشيه قادر على كسب الملايين. وتقول: إن الموظفين جبناء، فيجب أن يعمل المرء عملاً تجارياً خاصاً به وأن يكون محباً للمخاطرة والمبادرة إذا أراد أن يحصل على شيء.

مسكين مارتان بقفّازه ومعطفه وشاربيه المشبعين بالدهن! استطاع ميجريه أن يتخيل كل العبارات التي كانت تلقي بها زوجته فوق رأسه كالمطر أو السيل الذي لا ينقطع. ومع ذلك فقد قام

www.starbooks.shop

بما يستطيع أن يقوم به. ومن قبله كان كوشيه هو الذي يتلقى هذا التأنيب والتوبيخ، لا بدّ أنها كانت تقول له: انظر إلى السيد مارتان! إنه رجل ذكي، وهو يفكر أنه ربما تزوج في يوم من الأيام وسوف تتسلم زوجته معاشاً لو حدث له شيء، في حين أنك...

كان هذا كله يبدو في صورة تهمة جسيمة. لقد خدعت السيدة مارتان نفسها وخدعت الناس جميعاً. كان هناك خطأ مروع هو أساس كل شيء، فقد أرادت ابنة حلواني سان مور المال، هذا أمر قد تقرر، وكان هذا الأمر يمثل ضرورة، وكانت هي تشعر بذلك. لقد وُلدت لتحصل على المال، ونتيجة لذلك فقد كان على زوجها أن يجني المال.

هل كان كوشيه لا يجني مالاً كافياً ولن يكون لها معاش لو مات؟ لقد تزوجت مارتان، هذا كل ما في الأمر، لكن كوشيه هو الذي نال الملايين بعد فوات الأوان، ولم يكن من الممكن تركيب أجنحة لمارتان ولم يكن من الممكن دفعه لترك مكتب التسجيل وللعمل في بيع الأمصال أو أي شيء يدرّ الربح. كانت شقية، كانت دائماً شقية، وكانت الحياة تلهو بها بطريقة شنيعة.

كانت عينا العجوز الخضراوان مثبتتين على ميجريه، كانتا كعيني الصائد. وسألها: هل كان ابنها يأتي لزيارتها؟

- أحياناً.

- وهل كانت تلومه وتؤنبه هو أيضاً؟

من الواضح أن العجوز ظلت تنتظر هذه اللحظة سنوات

www.starbooks.shop

وسنوات. لم تكن بها عجلة، كان أمامها فسحة من الوقت.

أجابت قائلة: كانت تقدم له النصح قائلة: أبوك غني، وكان عليه أن يخجل لأنه لم يدبر لك مركزاً مرموقاً. إنك حتى لا تملك سيارة، فهل تعرف من السبب؟ إنها تلك المرأة التي تزوجته من أجل ماله، فهي قطعاً لم تتزوجه إلا من أجل ذلك. غير أن الله وحده يعلم ما تعدّ لك في المستقبل، فهل تظن أنك ستحصل على شيء من الثروة التي تخصك؟ لذلك يجب عليك الآن أن تستحوذ على المال وأن تدخره في مكان أمين، سأحفظه لك أنا لو أردت. هل تحب أن أحفظه لك؟

كان ميجريه يفكر وهو ينظر إلى الأرض القذرة، وكان يعتقد أنه توصل من وسط هذا الخليط من الأحاسيس إلى إحساس غالب ربما ولّد بقية الأحاسيس الأخرى. إنه القلق، قلق هائل يبعث على السقم ويقترب من الجنون. كانت السيدة مارتان تتحدث كثيراً عما "يمكن أن يقع"، موت الزوج والشقاء الذي ستلقاه إذا لم يترك لها معاشاً، وكانت تشفق على ابنها من هذا الشقاء... كان الأمر أشبه بكابوس مخيف أو بفكرة ملكت عليها دنياها.

- وبماذا كان يجيبها روجيه؟

- كان لا يلبث طويلاً، كان يبدو أن لديه أعمالاً أهم في الخارج.

- وهل حضر يوم الجريمة؟

- لا أدري.

www.starbooks.shop

من مقعدها كانت المجنونة، وهي في مثل سنّ ماتيلدا، ما تزال تنظر إلى المفتش وهي تبتسم ابتسامة جذابة.

- وهل دار بين مارتان وزوجته في ذلك اليوم نقاش أكثر أهمية من المعتاد؟ هل نزلت السيدة مارتان إلى الفناء في نحو الثامنة مساء؟

- لم أعُد أذكر. إنني لا أستطيع أن أمضي الوقت كله في الممر. لكنهما تعاركا في المساء.

- لماذا؟

- لا أدري.

- ألم تسمعيهما؟

لم تجِب، وكأن تعبير وجهها يقول: هذا أمر يخصني.

- وماذا تعرفين أيضاً؟

- أعرف لماذا مرضت.

- لماذا؟

- لأن...

- لأن ماذا؟

- لأنه لم يحضر النقود.

نطقت بتلك الجملة على مهل ثم أتبعتها بصمت نهائي.

www.starbooks.shop

انتهى كل شيء، لقد أعرضت عن الكلام، لقد قالت ما فيه الكفاية.

- أية نقود؟

مجهود ضائع، فإنها لن تجيب على أي سؤال، فقط قالت: هذا شيء لا يخصني، لقد سمعت هذا ولتفعل أنت به ما تريد، والآن حان الوقت لكي أعتني بأختي.

انصرف ميجريه تاركاً وراءه العجوزتين وذهنه يتقلب كما لو كان قد أصابه دُوار البحر.

لم يُحضر النقود! ألا يمكن تفسير ذلك؟ لقد قرر مارتان أن يسرق الزوج الأول، ربما كي لا يلام على وضاعته، ورأته هي من النافذة، وخرج هو بثلاثمئة وستين ورقة، ولكنه عندما عاد لم تكن النقود معه، فهل وضعها في مكان أمين أم سُرق هو بدوره؟ أم تملكه الخوف فتخلص من النقود؟ وهل هو من نفذ عملية القتل؟

لقد أراد أن يتكلم قبل قليل، وكان الإرهاق الذي يشعر به هو إرهاق شخص مذنب لم يعُد يجد في نفسه القوة ليلزم الصمت وبات يفضّل السجن على قلق الانتظار. ولكن لماذا كانت زوجته هي التي مرضت؟ وبالأخص لماذا كان روجيه هو الذي انتحر؟ ثم أليس خيال ميجريه هو الذي صور كل هذا؟ لماذا لا يرتاب في نين أو بالسيدة كوشيه أو حتى بالكولونيل؟

وبينما كان المفتش ينزل الدرج اصطدم بالسيد سان مارك

www.starbooks.shop

الذي كان عائداً من الخارج، فقال له: آه! هذا أنت؟

ومدّ له يداً مجاملة، فسأله السيد سان مارك: هل من جديد؟ هل تعتقد أن الموضوع سينتهي؟

ومن فوق سمعت صرخة المجنونة التي لا بدّ أن تكون أختها قد تركتها لتذهب وتتخذ مخفرها خلف أحد الأبواب.

-٢-

كانت جنازة رائعة اشترك فيها كثير من كبراء القوم، وخصوصاً عائلة السيد كوشيه وجيران شارع هوسمان. لم يكن يشذ عن المجموع إلا أخت كوشيه التي كانت تسير في الصف الأول، مع أنها بذلت المستحيل لتبدو أنيقة!

وخلف أفراد العائلة مباشرة كان موظفو معمل الأمصال، وكانت ماتيلدا العجوز تسير مع الموظفين بكبرياء، واثقة من نفسها ومن حقها في الحضور، وكان ثوبها الأسود لا يصلح إلا لتشييع الجنازات! وتلاقت نظرتها مع نظرة ميجريه فتنازلت وأومأت له إيماءة خفيفة. يبدو أن ماتيلدا دفعت حصتها في الإكليل، فهل سجّل آل مارتان اسمهما في قائمة المساهمين أيضاً؟

لم يرَ أحد السيدة مارتان، فقد كانت ما تزال في سريرها. وفي أحد الأركان البعيدة لمح ميجريه نين، وكان أنفها أحمر قانياً دون أن تكلف نفسها مشقة معالجته بذرّة من المسحوق. قالت: شيء فظيع، أليس كذلك؟

- ما هو الفظيع؟

www.starbooks.shop

- كل شيء... لا أدري، هذه الموسيقى ورائحة الأقحوان.

كانت تعض شفتها السفلى لتحبس زفرة، ثم استطردت تقول: وكما تعلم فقد فكرت طويلاً، وقلت لنفسي إن قلبه كان يحدّثه.

- هل ستذهبين إلى القبر؟

- ما رأيك؟ قد يشاهدونني هناك. لعل من الأفضل أن لا أذهب، ومع ذلك فإنني أحب أن أعرف المكان الذي سيودعونه فيه.

- يكفي أن تسألي الحارس.

- أجل.

كانا يتهامسان، وكانت خطوات آخر الحاضرين تخفّ في الجهة الأخرى من الباب، وشرعت بعض العربات في المسير.

- كنت تقولين إن قلبه كان يحدثه؟

- ربما ليس بأنه سيموت بهذه الطريقة، ولكنه كان يدرك أنه لن يعمر طويلاً، فقد كان مصاباً بمرض خطير في القلب.

كان الناظر يشعر أنها في قلق شديد وأن عقلها بقي ساعات وساعات لا يدور إلا حول موضوع واحد. قالت: كلمات كان يقولها وتمرّ الآن بخاطري.

- هل كان خائفاً؟

- لا، بالعكس، فعندما كان يتصادف أن نتحدث عن القبر

www.starbooks.shop

كان يقول ضاحكاً: إنه المكان الوحيد الذي يطمئن فيه الإنسان، مكان صغير هادئ لطيف.

- هل كان يمزح كثيراً؟

- نعم، خصوصاً عندما لا يكون مبتهجاً، هل تفهم؟ كان لا يحب أن يلاحظ الناس أنه مهموم، عندئذ كان يبحث عن أي سبب لكي يتحرك ويضحك.

- عندما كان يتحدث عن زوجته الأولى مثلاً؟

- لم يحدثني عنها مطلقاً.

- ولا عن الأخرى؟

- ولا عنها. كان لا يتحدث عن شخص بالذات، كان يتحدث عن الناس عامة، كان يرى أنهم حيوانات صغيرة مضحكة، وإذا حدث أن سلبه عامل المطعم شيئاً فإنه ينظر إليه بعين أكثر عطفاً من الآخرين ويقول: نذل! كان ينطق بهذه الكلمة وهو يلهو مسروراً.

كان الجو بارداً ولم يكن لدى ميجريه ونين ما يفعلانه في حي سان فيليب دي رول ذاك، فقال لها ميجريه: إلى اللقاء في مسرح الطاحونة، ما رأيك؟

- ليكن!

- سأمر بك ذات مساء.

وشد ميجريه على يدها، ثم قفز في إحدى الحافلات. كان

www.starbooks.shop

بحاجة إلى الخلو مع نفسه والتفكير، أو بالأحرى كان بحاجة لأن يترك لعقله الحبل على الغارب. وراح يتخيل الموكب الذي لن يلبث أن يبلغ المقابر، والسيدة كوشيه والكولونيل، والأشخاص الذين يمكن أن يناقشوا الوصية الغريبة.

لماذا كانا يحومان حول صناديق القمامة؟ هنا يكمن سر المأساة. لقد حام مارتان حول صناديق القمامة بحجة البحث عن قفاز لم يجده، ومع ذلك فقد كان يرتديه صباح اليوم التالي! وفتشت السيدة مارتان في القمامة هي أيضاً بزعم البحث عن ملعقة من الفضة ألقيت سهواً.

"لأنه لم يحضر النقود"... هكذا قالت ماتيلدا العجوز.

كانت الحافلة مزدحمة وهي تخترق المحطات، وسمع راكباً كان قريباً منه وهو يقول لصاحبه: هل سمعت خبر الأوراق المالية فئة ألف الفرنك؟

- لا، ما هذه القصة؟

- تمنيت لو كنت هناك عند جسر بوغيفال صباح أول أمس... أوراق مالية فئة ألف فرنك تسير مع التيار! كان أول من رآها ملّاح، وقد استطاع أن يلتقط بعضها، ولكن مراقب الملاحة لاحظ الأمر فاستدعى رجال الشرطة، حتى إن أحد رجال الشرطة كان يرقب صيادي النقود.

- صحيح؟

- ولم يمنعهم ذلك من الاستيلاء على بعضها، وقالت

www.starbooks.shop

الصحيفة اليومية إنهم عثروا على نحو ثلاثين ورقة. الأوراق المالية التي تمشي على طول مجرى السين! إنها أعظم من السمك البوري!

لم يتحرك لميجريه ساكن، كان رأسه مزدحماً بالافكار وكان وجهه هادئاً.

"لأنه لم يحضر النقود". إذن هذا هو بيت القصيد! ترى هل استولى الخوف على مارتان أم تنبه ضميره لذكرى جريمته؟ مارتان الذي صرح بأنه كان يتنزه في ذلك المساء في جزيرة سان لوي ليطرد آلامه العصبية.

ومع ذلك فقد ارتسمت على شفتَي ميجريه ابتسامة عندما تخيل السيدة مارتان التي رأت كل شيء من نافذتها والتي كانت تنتظره، ثم عاد زوجها متعباً خائراً. كانت تتابع أفعاله وحركاته، وكانت تنتظر أن ترى الأوراق المالية، وربما كانت تنتظر أن تعدّها. ولعلها أخذت ملابسه التي خلعها ليرتدي بيجامة النوم وراحت تنقب في جيوبها، ثم تقول: أين النقود؟ أين النقود؟

- أية نقود؟

- لمن أعطيتها؟ أجب، لا تحاول أن تكذب!

عندما اقترب من مكتبه غادر ميجريه الحافلة، وعند ذلك فوجئ بنفسه يقول بصوت خافت: أؤكد أن مارتان ما إن رقد في سريره حتى شرع في البكاء.

* * *

www.starbooks.shop

الفصل العاشر

-١-

بدأت هذه الاحداث الغريبة في محطة جومون. كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساء وكان بعض مسافري الدرجة الثالثة يتوجهون ناحية مكاتب الجمرك، في حين شرع الموظفون بتفتيش عربات الدرجة الأولى والثانية.

كان بعض المسافرين الدقيقين يجهّزون حقائبهم مقدماً فيعرضون أمتعتهم فوق المقعد الصغير، وكان هذا ما فعله رجل قلق العينين من الدرجة الثانية، كان يجلس في عربة لم يكن فيها سواه باستثناء زوجين بلجيكيين متقدمين في السن.

كانت أمتعة ذلك الرجل تمثل نموذجاً للنظام والإتقان، فالقمصان كانت ملفوفة في جرائد تلافياً للاتساخ، وكان هناك اثنا عشر زوجاً من الأكمام، وسراويل ثقيلة وأخرى صيفية، ومنبّه، وأحذية، وخُفّان قديمان. كان المرء يشعر بيد امرأة وراء هذا الترتيب، فلم يكن هناك موضع لم يُستغَل، ولم يكن يمكن لشيء أن يتجعّد أو ينثني.

www.starbooks.shop

قلب أحد موظفي الجمرك تلك الأشياء بإهمال وهو يرقب الرجل الذي يرتدي المعطف المطري والذي يملك مثل هذه الأمتعة، ثم قال له: شكراً.

ثم خطّ على الأمتعة علامة بالطباشير، فسأله الرجل قائلاً: من فضلك، أين تبدأ بلجيكا بالضبط؟

- هل ترى أول سياج هناك؟ لا، إنك لا ترى شيئاً؟ حسناً، عدّ المصابيح، الثالث إلى اليسار هو الحد الفاصل.

كان في الممر صوت يتكرر أمام كل باب قائلاً: أعدوا جوازات السفر والبطاقات الشخصية. وبذل رجل المعطف المطري مجهوداً كبيراً ليعيد وضع حقائبه فوق الرف.

- جوازك؟

التفت فرأى رجلاً يضع على رأسه قبعة رمادية.

- فرنسي؟ بطاقتك الشخصية.

استغرق الأمر عدة لحظات كانت أصابع المسافر تنقب خلالها في الحافظة، ثم قال: ها هو ذا يا سيدي.

- عظيم. مارتان إدغار إميل؟ عظيم! اتبعني.

- إلى أين؟

- يمكنك أن تحمل حقائبك.

- ولكن القطار!

www.starbooks.shop

هنا راح البلجيكيان ينظران إليه بفزع، فهل صحبا في سفرهما أحد المهربين أو المجرمين؟ أما مارتان الذي اتسعت حدقتاه دهشة فقد ارتقى المقعد ليتناول حقائبه عن الرف مرة أخرى.

- ما الذي...

- أسرع، فسوف يتحرك القطار عما قريب.

مضى الشاب ذو القبعة الرمادية يدحرج أثقل حقيبة على رصيف المحطة. كان الظلام شاملاً، وفي ضوء هالات المصابيح كان بعض الأشخاص يهرولون عائدين من المقصف، ثم دوّى صوت الصفارة.

كان السيد مارتان يتبع الشاب وهو يحمل حقائبه بصعوبة. إنه لم يتصور في حياته رصيفاً بهذا الطول! كان حقاً ميدان سباق لا ينتهي، وكان خالياً ومحاطاً بأبواب كثيرة، وأخيراً دفع الشاب الباب الأخير قائلاً: ادخل.

كان ظلاماً دامساً، لم يكن هناك غير مصباح واحد معلق فوق المنضدة، وكان من الانخفاض بحيث لم يكن يضيء إلا بعض الأوراق، ومع ذلك فقد كان في أقصى الحجرة شيء ما يتحرك، ثم سُمع الصوت الودود يقول: صباح الخير يا سيد مارتان.

ثم برز في الظلمة شبح ضخم. إنه المفتش ميجريه الذي كان متدثراً في معطفه الثقيل ويداه في جيبه، وقال: لا داعي

www.starbooks.shop

للانزعاج، سنستقلّ مرة أخرى قطار باريس الذي سيصل بعد قليل على الخط الثالث.

في هذه المرة كان الأمر أكيداً، كان مارتان يبكي بصمت ويداه ثابتتان بسبب الحقائب التي أحسن ترتيبها.

-٢-

كان المفتش الذي كان يتولى مراقبة العمارة رقم ٦١ بميدان ألفاج قد اتصل بميجريه هاتفياً قبل ذلك بعدة ساعات وقال: صاحبنا في طريقه للهرب، لقد ركب سيارة أجرة واتجه إلى محطة الشمال.

- دعه يهرب واستمر في مراقبة المرأة.

واستقل ميجريه نفس القطار الذي ركبه مارتان حيث ركب العربة المجاورة مع اثنين من رجال الشرطة، ومن آن لآخر كان يقرب عينه من الفتحة التي تفصل بين العربتين فيلمح مارتان حزيناً، وفي محطة جومون كانت حادثة البطاقة الشخصية والدخول إلى مكتب المفتش، والآن ها هما يعودان إلى باريس في القطار الراجع.

كانت يدا مارتان خاليتين من القيود، وكانت حقائبه على الرف فوق رأسه. وحتى محطة موبوج لم يكن ميجريه قد وجه سؤالاً واحداً. كان أمراً يسبب الجنون، فقد لبث قابعاً في أحد الأركان وغليونه بين أسنانه، وكان لا يكفّ عن مراقبة صاحبه بعينيه اللاهيتين.

www.starbooks.shop

فتح مارتان فمه عشر مرات، بل عشرين مرة، دون أن يجرؤ على الكلام، وأخيراً تحدث بصوت لا يمكن وصفه، وقد لا تستطيع السيدة مارتان نفسها أن تتعرف عليه، فقال: أنا الذي...

كان ميجريه ما يزال معرضاً عن الكلام، كانت عيناه تقولان: صحيح؟

- كنت... كنت آمل أن أجتاز الحدود.

كان ميجريه يسحب أنفاساً من غليونه ورأسه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال تبعاً لحركات عربة القطار، ومال مارتان ويداه البائستان في القفاز وعيناه تفيضان بالحمّى وقال: هل تعتقد أن الأمر سيستغرق طويلاً؟ بالتأكيد لا ما دمت سأعترف، أليس كذلك؟ سأعترف بكل شيء.

ماذا فعل حتى لا يبكي؟ لا بدّ أن أعصابه كانت تذيقه ألماً مريراً، ومن آن إلى آخر كانت عيناه تبدوان متوسلتين، تقولان لميجريه بكل وضوح: ساعدني إذن، إنك ترى أن الإرهاق قد بلغ مني غايته.

ولكن المفتش كان لا يتحرك، وكان بهدوئه ونظرته الفضولية التي تخلو من كل عاطفة كأنه يقف في حديقة للحيوانات أمام قفص في داخله حيوان غريب.

قال مارتان: لقد فاجأني كوشيه عندئذ.

تنهد ميجريه بطريقة لا تريد أن تعبّر عن شيء، أو بالأحرى يمكن أن تفسَّر بمئة طريقة مختلفة.

www.starbooks.shop

- ما دمت سأعترف بكل شيء، أليس كذلك؟ لا داعي للإنكار.

تماماً كما لو كان يتحدث مع شخص أصم أو مع شخص لا يفقه حرفاً واحداً من الفرنسية! كان ميجريه يحشو غليونه ويدسّ فيه التبغ بسبابته بطريقة دقيقة، وسأله قائلاً: هل معك ثقاب؟

- لا، أنا لا أدخن كما تعرف، فزوجتي لا تحب رائحة التبغ. أحب أن ينتهي الأمر بسرعة، هل تفهم؟ سأقول ذلك للمحامي الذي سأختاره، سأعترف بكل شيء. لقد قرأت في الصحيفة اليومية أنهم عثروا على بعض الأوراق المالية. لا أعرف لماذا فعلت ذلك، فعندما كنت أشعر بها في جيبي كان يلوح لي أن كل من في الطريق ينظرون إليّ، ففكرت أولاً أن أخفيها في مكان ما، ولكن لماذا فعلت ذلك؟ لقد مشيت على الرصيف بجانب النهر، كانت هناك بعض القوارب فخشيت أن يراني أحد أصحابها، وعندئذ عبرت جسر ماري، وفي جزيرة سان لوي استطعت أن أتخلص من الحزمة.

لم يجب ميجريه، فمضى مارتان قائلاً: كان يجب أن أعترف لك بكل شيء في المرة الأولى التي رأيتك فيها، ولكن لم تكن لديّ الشجاعة، وكنت آمل أن...

ثم صمت مارتان ونظر بفضول إلى صاحبه الذي كان قد فغر فاه وأغمض عينيه وراح يتنفس بصوت رتيب. كان ميجريه نائماً! وألقى الآخر نظرة على الباب الذي يكفي أن يدفعه، إلا أنه انزوى في أحد الأركان وهو يضم فخذيه ويداه الجزعتان فوق ركبتيه النحيلتين.

www.starbooks.shop

-٣-

وصل القطار إلى محطة الشمال، وكان الصباح هادئاً وسكان الضاحية الذين استيقظوا متأخرين يعبرون الأبواب في جماعة. كان القطار قد توقف بعيداً عن قاعة المحطة الرئيسية وكانت الحقائب ثقيلة، وكان مارتان لا يريد أن يتوقف، كان منهك القوى ويداه تؤلمانه.

واضطرا إلى الانتظار طويلاً حتى تمر إحدى سيارات الأجرة، ثم سأل مارتان قائلاً: هل أنت ذاهب بي إلى السجن؟

لقد أمضيا خمس ساعات في القطار لم ينطق ميجريه خلالها عشر جمل، والأدهى من ذلك أنها كانت جملاً لا علاقة لها بالجريمة ولا بالفرنكات. كان يتحدث عن غليونه أو عن حرارة الجو أو عن موعد الوصول.

قال ميجريه للسائق: العمارة رقم ٦١ في ميدان ألفاج.

فقال مارتان متوسلاً: أترى ضرورياً أن...

ثم قال لنفسه: ماذا سيظنون في المكتب؟ لم يكن لديّ وقت لإبلاغهم.

كانت الحارسة في غرفتها تفرز البريد، كومة كبيرة من الخطابات لمعامل أمصال الدكتور ريفيير وكومة صغيرة لبقية سكان العمارة، وعندما رأته هتفت: سيد مارتان، سيد مارتان، لقد حضر بعضهم من مكتب التسجيل ليسأل إن كنت مريضاً،

www.starbooks.shop

فيبدو أن معك مفتاح الـ...

كان ميجريه يسحب صاحبه الذي اضطر لجَرّ حقائبه الثقيلة على الدرج، وتحرك باب ماتيلدا العجوز.

- أعطني المفتاح.

- ولكن...

- افتح أنت بنفسك.

حلّ صمت عميق قطعه صرير القفل، ثم بدت حجرة الطعام منظمة وكل شيء في مكانه بالضبط، وتردد مارتان طويلاً قبل أن ينطق بصوت خافت قائلاً: هذا أنا والمفتش.

تحرك شخص في السرير الموجود في الحجرة المجاورة، وما إن أغلق مارتان الباب حتى تأوه قليلاً وقال: ما كان يجب علينا أن... إنها ليس لها دخل في ذلك، أليس كذلك؟ وفي حالتها هذه...

كان لا يجرؤ على دخول الحجرة، راح يلتقط الحقائب ويضعها فوق كرسيين كي يحافظ على اتزانه، وسأل ميجريه قائلاً: هل تحب أن تصنع قهوة؟

طرق ميجريه باب غرفة النوم وقال: أتسمحين لي بالدخول؟

لم يتلقّ رداً، فدفع الباب، فتلقى في صميم وجهه نظرة ثابتة من عيني السيدة مارتان التي كانت راقدة بلا حراك وشعرها منتشر في الفراش.

www.starbooks.shop

- آسف لإزعاجك، لقد أعدت إليك زوجك.

كان مارتان وراءه، كان يحس به ولكنه لا يستطيع أن يراه. وسمع وقع أقدام في الفناء وأصوات نساء، إنهم موظفو المكاتب والمعامل الذين كانوا يصلون، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا دقيقة. وعن قرب سُمعت صرخة مكتومة للمجنونة، وعلى منضدة السرير كانت توجد بعض الأدوية.

- هل ساءت حالك؟

كان يدرك تماماً أنها لن تجيب وأنها ستتشبث -على الرغم من كل شيء- بتحفّظها الشرس. بدا أنها تخشى أن تنطق بكلمة، كلمة واحدة، وكأن الكلمة الواحدة يمكن أن تجلب المصائب. كانت قد هزلت وغدا لونها أكثر شحوباً، غير أن عينيها الرماديتين كانتا تحتفظان بحياتهما الخاصة المتوهجة العنيدة.

ثم دخل مارتان بساقين خائرتين، وكانت هيئته تدل على أنه يعتذر ويطلب المغفرة. وتحولت العينان الرماديتان ناحيته في بطء، جامدتين قاسيتين، حتى إنه أشاح بوجهه وهو يقول متلعثماً: في محطة جومون... دقيقة واحدة وكنت سأبلغ بلجيكا.

كان لا بد من كلمات وجُمَل وضوضاء لشغل كل ذلك الفراغ الذي كان يبدو أنه يحيط بكل شخصية، فراغ كان ملموساً لدرجة أن الأصوات كانت ترجع الصدى وكأننا تحت نفق أو في مغارة! ولكنهم كانوا لا يتكلمون، كانوا فقط ينظرون بأعين قلقة، ثم يخيم الصمت كما يطبق الضباب.

www.starbooks.shop

ومع ذلك فقد كان شيء ما يجري، شيء بطيء خفي، يد تزحف تحت الغطاء وترتفع في حركة غير ملموسة حتى تبلغ الوسادة، كانت هذه يد السيدة مارتان النحيلة، وكان ميجريه، وهو ينظر إلى مكان آخر، يتابع تقدم اليد وينتظر اللحظة التي تصل فيها إلى غايتها.

- ألن يأتي الطبيب هذا المساء؟

- لا أدري. وهل يوجد من يهتم بي؟ إنني هنا كحيوان يتركونه للموت.

ولكن العين غدت أكثر بريقاً لأن اليد لمست أخيراً ما كانت تريد، وسمع حفيف ورقة لا يكاد يبلغ الآذان، فتقدم ميجريه خطوة وأمسك السيدة مارتان من معصمها. كانت تبدو بلا قوة، وربما بلا حياة، ولكن لم يمنع ذلك أنها ما لبثت فجأة أن أظهرت قوة خارقة.

كانت متشبثة بما في يدها، وكانت تدافع بحنق وهي جالسة فوق السرير، وقربت يدها من فمها وراحت تمزق بأسنانها الورقة البيضاء التي كانت تضغط عليها وهي تصرخ قائلة: دعني، دعني وإلا صرخت. وأنت! أتتركه يفعل ذلك؟

- سيدي المفتش، أتوسل إليك.

تأوه بها مارتان. كان يصغي، فقد كان يخشى أن يأتي السكان مهرولين، ولم يكن يجرؤ على التدخل.

- أيها الوحش! أيها الوحش القذر! أتضرب امرأة؟

www.starbooks.shop

لا، لم يكن ميجريه يضربها. كان مكتفياً بإمساك يديها، وربما مع ضغط على رسغها بشيء من القوة كي يمنعها من إتلاف الورقة.

- ألا تخجل؟ تضرب امرأة مريضة!

امرأة كانت تبذل مجهوداً قلما صادف مثله ميجريه خلال فترة خدمته كضابط، وسقطت قبعته على السرير. لقد عضت المفتش في رسغه فجأة، ولكنها لم تستطع أن تستمر مشدودة الأعصاب طويلاً، ونجح ميجريه في إبعاد أصابعها في حين أطلقت هي أنّة ألم.

والآن ها هي ذي تبكي، تبكي دون أن تبكي! أتبكي سخطاً أم غيظاً؟ ربما كي تتخذ موقفاً؟

- وأنت! تتركه يفعل ذلك؟

كان ظهر ميجريه عريضاً جداً بالنسبة إلى الحجرة الضيقة، كان يلوح أنه يملأ الفراغ كله ويحجب الضوء. واقترب من المدفأة ونشر الورقة التي زالت أجزاء من أطرافها، وقرأ نصاً مكتوباً بالآلة الكاتبة تعلوه هذه العبارة: "لافال وبيوليه، محاميان ومستشاران، مكتب قضائي". وإلى اليمين باللون الأحمر كانت هذه العبارة: "قضية كوشيه ومارتان، استشارة بتاريخ الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)".

صفحتان مقتضبتان مع مسافات بين الأسطر لم يقرأ ميجريه منها إلا أجزاء بصوت خافت:

www.starbooks.shop

> بعد الإطلاع على القانون، ونظراً إلى أن انتحار روجيه كوشيه كان لاحقاً لمقتل أبيه وأن الوصية لا يمكن أن تهضم ابناً شرعياً نصيبه الذي هو من حقه، وأن الوارث الطبيعي لروجيه كوشيه هو والدته، نتشرف بأن نؤكد لكم أن من حقكم المطالبة بنصف الثروة التي تركها أوسكار كوشيه من منقولات وعقارات، وأنه طبقاً لمعلوماتنا الشخصية فنحن نرى أن المصنع المعروف باسم الدكتور ريفيير يقدر بنحو خمسة ملايين، وكان قبلاً يقدر بثلاثة ملايين، ونحن في خدمتكم للقيام بجميع الإجراءات اللازمة لإبطال الوصية، ونؤكد لكم أننا نحتفظ لأنفسنا بالحق في عمالة تقدر بعشرة في المئة من المبالغ المستردة وذلك مقابل الأتعاب.

كانت السيدة مارتان قد كفت عن البكاء وعادت عيناها إلى الرقاد وراحت نظرتها الجامدة تنظر إلى السقف من جديد، وكان مارتان يقف في إطار الباب وهو أشد ما يكون حيرة، لا يدري ماذا يصنع بيديه وعينيه وجسده جميعاً.

ودمدم ميجريه لنفسه قائلاً: لنقرأ الحاشية.

كانت تلك الحاشية مسبوقة بهذه العبارة: «سري للغاية»، وكان نصها:

www.starbooks.shop

نحن نعتقد أن السيدة كوشيه، من عائلة دورموي، مستعدة هي أيضاً للطعن في الوصية. ومن جهة أخرى قمنا بالاستعلام عن المستفيدة الثالثة، وهي نين مونار، وهي امرأة متشككة ولم تتخذ بعد أي إجراء للمطالبة بحقوقها. ونظراً لأنها الآن بلا مورد فقد بدا لنا أن أجدى طريقة هي أن نعرض عليها أي مبلغ على سبيل التعويض، ونحن من جانبنا نقدّر هذا المبلغ بعشرين ألف فرنك، وهو مبلغ من شأنه أن يغري شخصاً في مثل حالة نين مونار، ونحن في انتظار قراركم بشأن هذا الموضوع.

طوى ميجريه الورقة ببطء ودسها في حافظته، ومن حوله كان يخيم صوت مطبق، وساءت حال مارتان حتى إنه حبس أنفاسه، وكانت زوجته على السرير بنظرتها الثابتة تبدو كالميتة.

دمدم ميجريه قائلاً: مليونان وخمسمئة ألف فرنك، مع خصم خمسة وعشرين ألف فرنك ستأخذها نين لكي تنسحب من القضية. يا له من مبلغ يا مارتان!

انتفض مارتان وحاول أن يتخذ موقفاً دفاعياً، فقال ميجريه: كم ستتلقى بظنّك؟ أنا لا أتحدث عن المال، وإنما أتحدث عن الحكم. سرقة وقتل، وربما ثبت سبق الإصرار، ما رأيك؟ عشر سنوات؟ عشرين سنة؟

www.starbooks.shop

كان المرء يظن أنه يتكلم لكي يتكلم، لكي يكسب وقتاً، واستطرد قائلاً: هل تريد رأيي؟ لاحظ أننا لا نستطيع أبداً أن نخمن قرار القضاة، ولكن يمكننا أن نقيس على سوابق قضائية. عشرين سنة؟ لا، إنني أميل إلى الشنق.

لم يعُد مارتان يتحرك، وبمقارنة بينه وبين زوجته كان هو الآن أكثر ضعفاً.

- ولكن السيدة مارتان ستصبح ثرية، وهي في السن التي تعرف فيها كيف تتمتع بالحياة وبالثروة.

اقترب من النافذة وقال: هذه ليست نافذة، إنها دليل الإدانة، فلن يلبثوا أن يلاحظوا أن المرء من هنا يستطيع أن يرى كل شيء، كل شيء... هل تسمعني؟ وهذا خطير لأنه قد يثير فكرة الاشتراك في الجريمة، وعندئذ يوجد في القانون نص صغير لا يعاقب القاتل وحده، بل شركاءه أيضاً. إنك ترى أهمية هذه النافذة.

لم يعُد الصمت هو ما يحيط به، كان شيئاً آخر أكثر إطباقاً وأكثر إقلاقاً، يكاد يكون غير حقيقي، انعدام تام لأي أثر للحياة، وفجأة وجّه ميجريه سؤالاً قائلاً: قل لي يا مارتان، ماذا صنعت بالمسدس؟

* * *

www.starbooks.shop

الفصل الحادي عشر

-١-

- أجب، ماذا فعلت بالمسدس؟

تابع نظرة مارتان، ووجد أن زوجته التي كانت تصوب نظرها إلى السقف تحرك أصابعها على الحائط.

كان مارتان المسكين يبذل مجهوداً خارقاً ليفهم ما كانت تريد أن تقول له. كان مهتماً، فقد كان ميجريه ينتظر الإجابة، وأخيراً قال: لقد...

ماذا تعني هذه الإشارات التي تخطها بإصبعها النحيل؟ سألها مارتان: ماذا...؟

وهنا أشفق عليه ميجريه حقاً. لا شك أن اللحظة كانت مفزعة، فقد كان مارتان يختلج من الجزع، فأجاب قائلاً: ألقيته في نهر السين.

قُضي الأمر. وبينما كان المفتش يخرج المسدس من جيبه ويضعه فوق المنضدة كانت السيدة مارتان تنتصب فوق السرير

www.starbooks.shop

بوجه يقطر حنقاً، فقال ميجريه: لقد بحثنا عنه حتى عثرنا عليه في مخلفات القمامة.

عندها خرج صوت المرأة المحمومة كالفحيح يقول: هل فهمت الآن؟ هل أنت سعيد؟ لقد أضعت الفرصة مرة أخرى كما هي عادتك دائماً، وقد فعلت ذلك فقط خوفاً من دخول السجن، ولكنك ستدخله رغماً عن ذلك لأنك أنت الذي سرقت المال.

ثم التفتت إلى ميجريه وقالت باهتياج: لقد ألقى الأستاذ ثلاثمئة وستين ألف فرنك في نهر السين!

بدت مخيفة، وكان الناظر إليها يدرك أنها كانت قد تمالكت نفسها أكثر من اللازم. كان اندفاعها عنيفاً، وكان هياجها من الهوس بحيث إن كلمات عديدة كانت تمثل أحياناً على شفتيها في نفس اللحظة، وكانت تخلط بين الألفاظ.

أما مارتان فقد أطرق برأسه. لقد انتهى دوره، وكما قالت زوجته في توبيخها العنيف فقد أخفق بطريقة تبعث على الرثاء.

- لقد قرر الأستاذ أن يسرق، ولكنه نسي قفازه فوق المكتب.

سمع ميجريه خلفه صوت الرجل الذليل يقول: منذ شهور طويلة وهي تنظر من النافذة وتشير لي إلى المكتب وإلى كوشيه الذي اعتاد الذهاب إلى غرفة الأحواض بعد إيداع المال في الخزنة، وكانت تلومني لأنني أنغص عليها حياتها ولا أستطيع أن أعول امرأة، فذهبت.

- هل أخبرتها بأنك ذاهب؟

www.starbooks.shop

- لا، ولكنها كانت تعلم، فقد كانت تنظر من النافذة.

التفت ميجريه إلى السيدة مارتان قائلاً: ومن بعيد رأيت القفاز الذي نسيه زوجك يا سيدة مارتان؟

- كان كأنه يترك بطاقة زيارة!

- فأخذت مسدسك وذهبت إلى هناك، ورجع كوشيه وأنت ما تزالين في المكتب فاعتقد أنك أنت السارقة.

- وأراد أن يقبض عليّ. أجل، هذا هو ما أراد أن يفعله، وكأنه لم يصبح غنياً بفضلي أنا، فمن الذي كان يقوم على خدمته في البداية عندما كان لا يجني من المال ما يقيم به أوده؟ إن الرجال جميعاً متشابهون. لقد بلغ به الأمر لدرجة لومي على السكن في العمارة التي توجد فيها مكاتبه واتهمني بمقاسمة ابني للمال الذي كان يعطيه إياه.

- وأطلقت الرصاص؟

- كان قد رفع سماعة الهاتف ليستدعي الشرطة.

- ثم ذهبت إلى صناديق القمامة، وبحجة البحث عن ملعقة صغيرة دسست فيها المسدس. مَن الذي قابلتِه عندئذ؟

- الكهل الأبله ساكن الطابق الأول.

- ولا أحد غيره؟ أعتقد أن ابنك جاء، فلم يكن لديه نقود.

- نعم.

- لم يكن قد جاء من أجلك أنت وإنما من أجل أبيه، أليس

www.starbooks.shop

كذلك؟ كل ما في الأمر أنك لم تستطيعي أن تتركيه يذهب إلى المكتب حيث كان من الممكن أن يكتشف الجثة. كنتما في الفناء أنتما معاً، فماذا قلت لروجيه؟

- طلبت منه أن ينصرف... إنك لا تستطيع أن تفهم قلب الأم.

- فانصرف، ثم عاد زوجك، ولم يحاول أحدكما سؤال الآخر. صحيح؟ وكان مارتان يفكر في الأوراق المالية التي انتهى به الأمر إلى إلقائها في نهر السين لأنه في الواقع رجل طيب مسكين.

- رجل طيب مسكين!

كررتها السيدة مارتان بحنق غير متوقَّع، ثم استطردت قائلة: وأنا؟ أنا التي طالما شقيت؟

قال ميجريه: ولم يعرف مارتان من الذي ارتكب جريمة القتل. ونام دون أن تتحدثا عن شيء، ثم نهضتِ لتفتشي الملابس التي خلعها وبحثتِ عن أوراق النقد دون جدوى. وكان هو ينظر إليك، فسألتِه، وهنا وقعت المشادّة التي سمعتها ماتيلدا العجوز من وراء الباب. لقد قتلتِ بلا فائدة، فقد ألقى مارتان الأبله النقود في السين بسبب افتقاره إلى الشجاعة! ومرضت بسبب ذلك، أصابتك الحمى، وذهب مارتان نفسه، الذي كان يجهل أنك القاتلة، ليخبر روجيه. وفهم روجيه، فقد رآك في الفناء ومنعته أنت من التقدم. إنه يعرفك، ولعله اعتقد أنني أرتاب فيه وتصور أننا سنلقي القبض عليه ونوجه إليه التهمة، وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه دون أن يتهم أمه! قد لا يكون شاباً لطيفاً، ولكننا قد نجد في الحياة التي كان يعيشها بعض العذر. لقد أصابه الرعب

www.starbooks.shop

والاشمئزاز، الاشمئزاز من مأساة العائلة التي كان يدرك وحده ما يمكن أن تؤدي إليه، فألقى بنفسه من النافذة.

بقي مارتان صامتاً ووجهه بين يديه المثنيتين، ولكن امرأته كانت تنظر إلى المفتش بإمعان وكأنها لا تنتظر إلا اللحظة التي تتدخل عندها في سرد الأحداث وتهاجم بدورها، وعندئذ عرض ميجريه الاستشارة التي حررها المحاميان، ثم قال: وفي زيارتي الأخيرة كان الخوف يسيطر على مارتان حتى إنه كان سيعترف بسرقته، ولكنك كنت موجودة، وكان يلمحك من فرجة الباب. كنت توجهين إليه إشارات قوية فلزم الصمت. هل كان ذلك هو ما فتح عينيه أخيراً؟ هل سألك عندها فأجبته بأنك أنت التي قتلت كوشيه؟ هل صرخت بها في وجهه، قتلت من أجله، من أجل تدارك نسيانه، من أجل ذلك القفاز الذي تركه فوق المكتب؟ ولأنك قتلت فإنك لن ترثي شيئاً على الرغم من الوصية! آه لو كان مارتان رجلاً، فليرحل إلى الخارج، وسوف يعتقدون أنه هو القاتل، ثم تهدأ الشرطة وبعد ذلك تلحقين به مع الملايين. ورحل مارتان المسكين!

كان ميجريه يتكلم بصوت لا رنين له، كانت كلماته تتساقط دونما إلحاح منه. قال: ما أكثر ما حصل من أجل هذه النقود! قتل كوشيه، وانتحار روجيه بإلقاء نفسه من النافذة، وفي آخر دقيقة تدركين أنكما لن تحصلا عليها! وفضّلتِ أن تُعدّي بنفسك حقائب مارتان، حقائب مرتبة ترتيباً حسناً، ملابس لعدة شهور.

- اسكت!

www.starbooks.shop

قالها مارتان متوسلاً، وصرخت المجنونة، ففتح ميجريه الباب فجأة فكادت ماتيلدا العجوز تنكفئ على وجهها، ففرّت هاربة فزعة من صوت المفتش. ولأول مرة أغلقت بابها حقاً وأدرات المفتاح في القفل.

ألقى ميجريه نظرة أخيرة على الغرفة. كان مارتان لا يجرؤ على الحركة، وزوجته فوق السرير هزيلة وقد برزت عظام كتفيها وهي تتابع بعينيها مفتش الشرطة. كانت رزينة ساكنة حتى ليتساءل الناظر إليها بعين قلقة بماذا تفكر.

لم يكن في استطاعتهما التدخل، فقد حدث هذا خارجاً عن إرادتهما كحلم مزعج. كانت السيدة مارتان هزيلة، هزيلة جداً، وغدت ملامحها أبعث على الحزن من ذي قبل. ترى ما الذي تنظر إليه في مواضع ليست فيها إلا الأشياء المألوفة في الغرفة؟ ما هذا الذي تتابعه بعينيها باهتمام؟

كان جبينها يتغضن، وكان صدغاها يختلجان، فصاح مارتان قائلاً: إنني خائف.

كان الناظر إلى السيدة مارتان يكاد يظن أنها تبذل مجهوداً جباراً لتجتاز جبلاً لا يمكن الوصول إليه. وتحركت يدها مرتين بحركة مَن يبعد شيئاً عن وجهه، وأخيراً ابتسمت ابتسامة شخص يبلغ بغيته وقالت: ومع ذلك فستأتون جميعاً لتسألوني بعض النقود، ولكني سأطلب من موثّق عقودي أن لا يعطيكم شيئاً.

اختلج مارتان من قدميه حتى رأسه، فقد أدرك أن هذا ليس هذياناً عابراً نتج عن الحمى... لقد فقدت المرأة عقلها. ثم قال

www.starbooks.shop

بأسى وكأنه ينتظر موافقة ميجريه: لا يمكن أن يحقد أحد عليها، فهي لم تكن مثل بقية النساء تماماً، أليس كذلك؟

فقال ميجريه: مسكين يا مارتان!

كان مارتان يبكي وهو يمسك بيد زوجته، وكانت هي تدفعه عنها وعلى شفتيها ابتسامة متعالية محتقرة وهي تقول: لا أكثر من خمسة فرنكات مرة واحدة، لقد قاسيت بما فيه الكفاية، أنا مَن...

فقال ميجريه: سأتصل بمستشفى سانت آن.

- هل تعتقد... هل من الضروري احتجازها؟

أهي قوة العادة الآسرة؟ لقد ابتأس مارتان لفكرة مغادرة مسكنه، هذا الجو من التأنيب والعراك اليوميين وهذه الحياة القذرة وهذه المرأة التي تحاول للمرة الأخيرة أن تفكر، لكنها تُغلب على أمرها فتهوي في فراشها وعلى شفتيها ابتسامة عريضة وهي تهذي قائلة: أحضروا لي المفتاح.

-٢-

بعد فترة كان ميجريه يجتاز زحام الشارع كرجل غريب، والأمر الذي كان يحدث له نادراً أنه شعر بصداع فظيع، فدخل صيدلية ليشتري أقراص الأسبرين.

كانت ضوضاء المدينة تختلط بضوضاء أخرى، بأصوات بشرية على وجه الخصوص، كانت لا تزال تدوي في عقله. صورة واحدة استحوذت على خياله أكثر من غيرها من الصور،

www.starbooks.shop

صورة السيدة مارتان وهي تنهض من فراشها فتأخذ ملابس زوجها وتبحث فيها عن النقود، ومارتان ينظر إليها من سريره، والمرأة توجه إليه نظرة مستفسرة فيقول: لقد ألقيتها في نهر السين!

منذ ذلك الحين وهذا الصداع قائم في رأسها، أو بالأحرى هذا الخلل.

وعندما كان ميجريه يعبر شارع بومارشيه راح يفكر في نين، ثم حدّث نفسه قائلاً: لن تحصل على شيء، ولا درهم، فسوف تبطل الوصية، والسيدة كوشيه هي التي... لا بدّ أن الكولونيل قد بدأ إجراءاته. كان هذا أمراً طبيعياً، وسوف تحصل السيدة كوشيه على كل شيء، على كل الملايين. إنها سيدة مرموقة تعرف كيف تحافظ على كرامتها.

صعد ميجريه الدرج ببطء ثم دفع باب شقته في شارع ريتشارد لونوار. كانت السيدة ميجريه تضع الأطباق على المائدة، ونظرت إليه قائلة بحنان: يبدو عليك الإرهاق، أتعشّم أن لا تخرج اليوم مرة أخرى إلى العمل.

ولم يخرج ميجريه، وتحسن مزاجه بعد العشاء فلم يعُد يشعر بالصداع. لم يعُد يفكر في السيدة مارتان التي حملتها إحدى عربات الإسعاف في طريقها إلى مستشفى الأمراض العقلية في سانت آن، في حين كان زوجها ينتحب وحيداً في البيت الخالي.

* * *

-تمَّت-

www.starbooks.shop

في هذه المجموعة

الروايات البوليسيّة ١

على شاطِئ بْرايْتون



غْراهام غْرين

دار النجمة للنشر والتوزيع

الروايات البوليسيّة ٢

الأَيْدي الزَّاحِفَة



هيلْدا لورَنْس

دار النجمة للنشر والتوزيع

الروايات البوليسيّة ٣

ظِلالٌ في الصَّحْرَاء



ويتْ ماسْتِرْسون

دار النجمة للنشر والتوزيع

الروايات البوليسيّة ٤

خَيَالٌ في النَّافِذَة



جورج سيمْنون

دار النجمة للنشر والتوزيع

الروايات البوليسيّة ٥

ذاتُ القُبَّعَة البَيْضاء



جورج سيمْنون

دار النجمة للنشر والتوزيع

الروايات البوليسيّة ٦

خُيُوطُ الجَرِيمَة



آرثَر كونان دويْل

دار النجمة للنشر والتوزيع

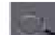

الروايات البوليسيّة ٧

الكَنْزُ الضَّائع



آرثَر كونان دويْل

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

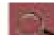

الروايات البوليسيّة ٨

الصَّقْرُ الذَّهَبيّ



داشيل هامِتْ

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

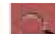

الروايات البوليسيّة ٩

امرَأةٌ في البُحَيْرة



ريموندْ تشانْدلَر

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

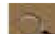

الروايات البوليسيّة ١٠

جَريمَةٌ في الفُنْدُق



نايُو مارْش

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع


الروايات البوليسيّة ١١

لُغزُ اختفاء الخَزّاف



ماري كيري

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع


الروايات البوليسيّة ١٢

مَوْتٌ في القَصْر المَهْجور



فالَنتايْن ويليامْز

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع


الروايات البوليسيّة ١٣

مَأساةُ المَنْجَم



ريتا ويتْمَان

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

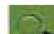

الروايات البوليسيّة ١٤

الرَّجُل الذي أرادَ أن يَموت



ثوماس نارْسيجَاك

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع


الروايات البوليسيّة ١٥

المَقصُورة المَهْجورَة



هيلْدا لورنْس

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع



١٦ الروايات البوليسيّة

الجُثَّة العَائِمَة



آلانْ هَنْتَر

دار النجمة للنشر والتوزيع



١٧ الروايات البوليسيّة

سَأَقْتُلُ عَمَّتي



ريتشارد هيل

دار النجمة للنشر والتوزيع



١٨ الروايات البوليسيّة

خَاتِمَة المَسْرَحِيَّة



جون ديكسون كار

دار النجمة للنشر والتوزيع



١٩ الروايات البوليسيّة

مَصْرَعَ المَلْيُونير



إدْموند بِنْتلي

دار النجمة للنشر والتوزيع



٢٠ الروايات البوليسيّة

الأصَابِعُ المَذْعُورَة



سبِنْسَر دِين

دار النجمة للنشر والتوزيع



٢١ الروايات البوليسيّة

وُجُوهٌ في الظَّلام



بيير بُوالو
توماس نارْسيجاك

دار النجمة للنشر والتوزيع



٢٢ الروايات البوليسيّة

الإشْعَاعُ القَاتِل



مِلْتون سُكوت مَايْكل

دار النجمة للنشر والتوزيع



٢٣ الروايات البوليسيّة

خَطَرٌ في سِيرْكِ المَوْت



أنْتوني بُوت

دار النجمة للنشر والتوزيع



٢٤ الروايات البوليسيّة

مُطارَدَةٌ في السَّمَاء



وِنْسْتون جونْز

دار النجمة للنشر والتوزيع